6

في العاشر من تموز/يوليو 2001، التقى مدير وكالة الاستخبارات المركزية جورج تنت رئيس مكتب مكافحة الإرهاب في الوكالة كوفر بلاك في المقر الرئيس للوكالة لاستعراض آخر المعلومات عن أسامة بن لادن ومنظمته الإرهابية: القاعدة. قام بلاك بعرض الصورة المؤلفة من عدد من الاتصالات الملتقطة وبعض المعلومات الاستخباراتية الأخرى السرية جداً، مبيناً الاحتمال المتزايد لقيام القاعدة قريباً بمهاجمة الولايات المتحدة. كانت الصورة نتفاً ونقاطاً غير أنها شكلت قضية ملحة، نعم قضية ملحة إلى درجة جعلت تنت يقرر أن عليه أن يذهب فوراً إلى البيت الأبيض مصطحباً بلاك. اتصل تنت بكوندوليزا رايس من السيارة، وقال لها إنه يريد رؤيتها الآن. لم يكن ثمة أي مجال عملي يمكّنها من رفض مثل هذا الطلب لمدير وكالة الاستخبارات المركزية.

منذ أشهر كان تنت دائباً على ممارسة الضغط على رايس طالباً منها اعتماد خطة واضحة لمكافحة الإرهاب، بما فيها أوامر رئاسية محددة تعرف باسم لُقى من شأنها أن تمنح الوكالة سلطة أقوى على صعيد تنفيذ عمليات سرية ضد ابن لادن. ربما كان من شأن مظهر مسرحي مثير - دعاه بلاك دورة "خارج الدائرة"، عدا اجتماع تنت الأسبوعي الدوري مع رايس - أن يلفت نظر الأخيرة.

كان تنت قد بات شديد القلق إزاء المعلومات الاستخباراتية التي اطلع عليها مؤخراً. لم تكن ثمة أي معلومات حاسمة، مؤكدة، غير أن هناك كم هائل من المؤشرات التي تغري غريزة أي ضابط مخابرات بتوقع حصول شيء ما بقوة. كان تنت ومعه بلاك يرعبان في التعبير عن عمق قلقهما وصولاً إلى دفع رايس إلى حفز الحكومة على التحرك المباشر.

كان تنت، ذلك الابن القطيعي الخشن لأبوين مهاجرين من اليونان البالغ 48 عاماً من العمر، رئيساً لوكالة الاستخبارات المركزية منذ أربع سنوات. كان الإرث الوحيد المتبقي من إدارة كلنتون في مجلس جورج دبليو بوش للأمن القومي وبالتالي عضو مجلس الأمن القومي الوحيد الذي كان على رأس عمله في شهري تشرين الثاني/نوفمبر وكانون

الأول/ديسمبر 1999، قبيل ولوج الألفية الجديدة، حين تفجرت سلسلة من عمليات القاعدة العالمية. بدا الوضع الحالي مذكّراً بتلك الأحداث بالنسبة إلى تنت.

من قبل، في 1999، كانت وكالة الأمن القومي قد التقطت مخابرة هاتفية من أحد حلفاء ابن لادن تقول: "انتهى وقت التدريب". كانت عملية الالتقاط قد أفضت إلى تعطيل عدد من الهجمات في الأردن وإسرائيل. جهادي جزائري في الثانية والثلاثين من العمر يدعى أحمد بسام أُلقي القبض عليه وهو يحاول دخول الولايات المتحدة من كندا قبل ميلاد 1999 ومعه متفجرات لمهاجمة مطار لوس أنجلوس الدولي. كان تنت قد اتصل بمراكز الوكالة الميدانية. قبيل ولوج الألفية الجديدة قال في إحدى البرقيات: إن الشعب الأمريكي يعول عليكم وعلي آملاً أن نتخذ كل التدابير اللازمة لحمايته في هذه الحقبة". نبه الرئيس كلنتون إلى احتمال وقوع 15 أو 20 هجوماً. تحدث مع رؤساء عشرين جهاز استخباراتي صديق مطلقاً سلسلة من عمليات المداهمة والاعتقال الموجهة ضد الإرهاب في ثمانية بلدان.

اعتقد تنت الآن أنه كان يرى شيئاً مشابهاً، ربما أسوأ بكثير. كانت وكالة الأمن القومي تلتقط حوارات مشؤومة بين أتباع ابن لادن - أكثر من 34 مخابرة إجمالاً - حوارات أطلقوا فيها تصريحات منذرة بالسوء عن "ساعة صفر" قريبة، مع بيان أن "شيئاً استثنائياً آت". قبل عشرة أيام، في الثلاثين من حزيران/يونيو، كان تنت قد تكلم مع جميع رؤساء محطاته بتقاسم المعلومات الاستخباراتية عن القاعدة مع الحكومات الصديقة في الخارج ودفعها إلى جعل أجهزتها الاستخباراتية تبادر إلى تفكيك الخلايا الإرهابية المشبوهة في بلدانها. وكما سبق له أن فعل في 1999، أتبع تنت ذلك في الثالث من تموز/يوليو باتصالات أو لقاءات شخصية مع رؤساء أجهزة الاستخبارات الأجنبية الصديقة العشرين نفسها طالباً منهم احتجاز مشبوهي القاعدة في بلادهم ومطاردة أعضاء خلايا إرهابية أخرى ذات علاقة بالقاعدة.

مع أن أحداً لم يكن يعرف متى، أين أو كيف، فإن تنت كان يشعر بأن هناك قدر مفرطاً من الضجيج في الأجهزة الاستخباراتية. قبل أسبوعين كان قد قال لمدير مكافحة الإرهاب في مجلس الأمن القومي ريتشارد ايه كلارك: "إنها حاستي السادسة غير أنني أشعر أنها آتية. ستكون هذه الهجمة هي الكبرى".

إلا أن تنت كان يجد صعوبة في الاهتداء إلى أي دليل يشير إلى خطة عمل بن لادنية وشيكة، جزئياً لأن رمسفلد كان قد شكّك بجميع المخابرات التي التقطتها وكالة

الأمن القومي والمعلومات الاستخباراتية الأخرى. ألا يمكن لهذا كله أن يكون خداعاً كبيراً؟ كان رمسفلد قد سأل. ربما كان الأمر خطة لاختبار ردود أفعال الولايات المتحدة ودفاعاتها. أمر تنت بمراجعة جميع الاتصالات الملتقطة من قبل وكالة الأمن القومي. تم التوصل إلى استنتاج يؤكد أنها اتصالات حقيقية للقاعدة. في الثلاثين من حزيران/يونيو تضمن إيجاز استخباراتي **سري للغاية** صادر عن جهة تنفيذية عليا بنداً بعنوان: "تهديدات بن لادن واقعية".

كان تنت يأمل في أن تؤدي مطالبته العاجلة بلقاء فوري إلى تحريك رايس. وقد كان لدى تنت ومعه عنصر العمليات السرية المخضرم ذو الشعر الخفيف والصوت المفرط في نعومته والشبيه بكارل روف أطول قامة، البالغ الثانية والخمسين من العمر، بلاك، نقطتان رئيستان حين اجتمعا برايس. أولاً: كانت القاعدة موشكة على مهاجمة سلسلة من المصالح الأمريكية، ربما في داخل الولايات المتحدة نفسها. أكد بلاك أن الأمر يرقى إلى مستوى إنذار استراتيجي، أي أن المشكلة بالغة الخطورة وتستدعي خطة واستراتيجية شاملتين. ثانياً: كانت هذه مشكلة سياسة خارجية كبرى بحاجة إلى المعالجة الفورية. لابد من التحرك آنياً، دون أي تأخير، للمبادرة إلى عمل ما - سري، عسكري، لا فرق - لقطع الطريق على بن لادن.

قال الرجلان لرايس إن الولايات المتحدة متوفرة على فيض من الموارد البشرية والتقنية وإن جميع معلوماتنا الاستخباراتية مطردة. أقر بلاك بأن بعضها "ألغاز" غير يقينية، غير أن مثل هذه "الألغاز" هي في الغالب أصدق المؤشرات.

أحس تنت وبلاك بأنهما لم يتمكنا من إقناع رايس. صحيح أنها كانت لبقة، غير أنهما شعرا بالاستخفاف. كان بوش قد قال إنه لم يكن يريد أي انقضاض عنيف على أسراب الذباب (على طريقة الدب في القصة المعروفة - المترجم). وكما كان الجميع يعرفون فإن خطة منسقة لتحرك سري ضد بن لادن كان قيد الإعداد، غير أن الأمر كان سيستغرق بعض الوقت. ففي الاجتماعات الأخيرة خلف الأبواب المغلقة كان جهاز مجلس الأمن القومي كله عاكفاً على دراسة التحرك ضد بن لادن بما في ذلك استخدام السلاح السري الجديد: طائرة البريد اتور غير المأهولة القادرة على إطلاق وابل من الصواريخ لقتل بن لادن ومعاونيه. بدا ذلك حلاً ممكناً، غير أن هناك جدلاً مقيماً بين وكالة الاستخبارات المركزية والبنتاغون حول الطرف الذي سيغطي التكاليف وسيتمتع

بسلطة إصدار أمر إطلاق النار. يضاف إلى ذلك أن رايس بدت متركزة على أولويات أخرى للإدارة، ولاسيما منظومة الدفاع الصاروخي البالستي التي كانت إحدى أطروحات حملة بوش الانتخابية. لم تكن رايس في المكان نفسه.

غادر تنت اللقاء محبطاً. ومع أن رايس كانت قد أبدت لباقة الإصغاء، فإن من شأن عدم التحرك الفوري أن يعني خطراً جسيماً. أحس بلاك بأن قرار الاكتفاء بمتابعة التخطيط لم يكن إلا إخفاقاً تخطيطياً وسياسياً متمادياً. بالغت رايس ومعها فريق بوش في إطالة أمد السُّبات. وقد قال فيما بعد: "على الراشدين ألا يعوّلوا على مثل هذا النظام".

قدّر بلاك أنه لو مُنح رصيد عمليات سرية بمبلغ نصف مليار دولار في ذلك الوقت مع تزويده بصلاحيات معقولة من قبل الرئيس للإجهاز على بن لادن، لتمكن من قطع خطوات كبيرة على طريق الإجهاز عليه .ن لم يكن وضع حد له. كان بن لادن يعمل من ملاذ غير عادي في أفغانستان خاضعة لحكم الطالبان المتطرف. لم يكن العمل السري المحتمل خيالاً مجرداً. فعلى امتداد العامين الأخيرين - وإلى وقت قريب مثل آذار/مارس 2001 - كانت وكالة الاستخبارات المركزية قد نشرت فرقاً شبه عسكرية خمس مرات داخل أفغانستان للتعاون مع تحالف الشمال المناوئ للطالبان، ذلك الاتحاد الفضفاض لعدد من الميليشيات والقبائل في الشمال. وكان لدى الاستخبارات المركزية مئة مصدر رئيس وفرعي قيد العمل في طول أفغانستان وعرضها. فقط وفّروا له المال وامنحوه السلطة لتجدوه، ربما، عائداً بعد حين ومعه رأس بن لادن في صندوق.

مر اجتماع العاشر من تموز/يوليو 2001 لكل من تنت، بلاك ورايس دون أي ذكر في مختلف تقارير التحقيقات التي تناولت هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر 2001 الإرهابية في الولايات المتحدة، غير أنه ظل ماثلاً في ذِهْنَيْ تنت وبلاك كليهما بوصفه الإنذار الأوضح والأفقع الذي كانا قد وفّراه للبيت الأبيض عن بن لادن والقاعدة. وعلى الرغم من أن المحققين كانوا حاصلين على جميع الأوراق ذات العلاقة بالاجتماع، فإن بلاك شعر بأن هناك أشياء معينة كانت اللجان تريد أن تعرف عنها وأشياء أخرى لم تكن راغبة في أن تعرف عنها. ذلك هو ما حدث في التحقيقات. ثمة كانت أسئلة أرادوا أن يطرحوها وأسئلة أخرى كانوا عازفين عن طرحها.

كان المدير التنفيذي الهجومي والعدواني للجنة 9/11 التي حققت في الهجمات الإرهابية، أستاذ جامعة فيرجينيا الذي سبق له أن اشترك مع رايس في تأليف كتاب

عن ألمانيا، فيليب زليكوف، يعرف ولكن زليكوف لم يكن قادراً على تخمين ما كان يمكن أن يترتب على مثل ذلك التحرك في الواقع. فالتحذير الاستراتيجي الذي قام تنت وبلاك بتوجيهه كان مفتقراً إلى التفاصيل. متى؟ أين؟ كيف؟

يضاف إلى ذلك أن زليكوف استنتج أن التخطيط لتحرك سري من أجل تعقب ابن لادن في ملاذه الآمن بأفغانستان سار بالفعل قدماً وبخطوات لم تكن بطيئة - بل سريعة تماماً بالنسبة إلى أي جهاز بيروقراطي في مؤسسة الأمن القومي، حسب إحساسه، على الرغم من أن الخطة لم تُعتمد قبل هجمات الحادي عشر من أيلول. في الحقيقة كان لدى رايس مشروع توجيه أمن قومي رئاسي يقضي بإطلاق حرب سرية جديدة ضد ابن لادن منتظر إرساله إلى بوش يوم 10 أيلول/سبتمبر 2001. كان المشروع يحمل عنوان NSPD-9 (توجيه أمن قومي رئاسي - 9). بمعنى أنه كان مسبوقاً بثماني قضايا أخرى ذات علاقة بالسياسة الخارجية تم بحثها ومناقشتها رسمياً، تمت الموافقة عليها وتوقيعها من قبل رئيس الجمهورية بوصفها خطة سياسية للإدارة قبل الخطة الخاصة بتعقب بن لادن.

كان رمسفلد يعمل أيام العطل الأسبوعية. وذات يوم سبت أوائل آب/أغسطس 2001 استدعى شلتون، مدير العمليات، وجميع رؤساء الأقسام ذوي العلاقة بخطط الـ 68 الحربية الموضوعة على الرف، بما فيها خطتي الحرب الرئيستين الخاصتين بكل من العراق وكوريا الشمالية. كان اجتماعاً مرهقاً وشاقاً. أراد رمسفلد معاينة الافتراضات والمزاعم. قال لي في إحدى المقابلات: "بقيت جالساً ولم يستطع هؤلاء الناس أن يصدقوا. استغرقت الجلسة الجزء الأكبر من النهار. أحد العقداء يورد سلسلة من الافتراضات فأتحدث عنها وأناقشها. ثم يبادر "زبون" آخر إلى القيام بالشيء نفسه، ثم ثالث فرابع إلى أن أدلى الجميع بدلائهم". كان عمر التوجيه الرسمي بالنسبة إلى هذه الخطط والصادر عن وزير الدفاع ورئيس الجمهورية أربع أو خمس سنوات في بعض الحالات. "ومع ذلك فإنها لم تُناقش من قبل هنا". في مكتب الوزير، كما تذكّر رمسفلد بامتعاض.

خلال جلسة السبت قال الأميرال غيامباستياني موجهاً كلامه إلى رمسفلد: "سنبقى هنا مدة لا تقل عن أسبوع إذا بقينا على هذه الوتيرة".

أصر رمسفلد على المتابعة. بدت الخطط معقدة ومثقلة بالإرباكات جراء المشكلة الفنية المتمثلة بتحقيق التوازن بين الأهداف ومستويات القوة. وقد كان هذا، برأيه،

العمل الشاق والمعقد الذي دأب العقداء على حله بمجرد إقحام المزيد والمزيد من القوات في الخطط الحربية. كان هؤلاء العقداء ضد المخاطرة. أما هو فلم يكن كذلك. لقد كان مستعداً للمخاطرة بل وحتى تواقاً إلى اقتحام الخطر.

كان شلتون رئيساً لهيئة رؤساء الأركان منذ عام 1997. فترته البالغة أربع سنوات كانت ستنتهي في الخريف. قام رمسفلد بإحالة مهمة المساهمة في العثور على خلف الحساسة على ستيرز هولكومب، مستشار المطبخ الوزاري ومعاون الأميرال المتقاعد الذي كان مساعده العسكري قبل 25 سنة. بدأ هولكومب بقائمة مطولة ضمت أسماء 150 ضابطاً. قابل النصف شخصياً، غربل القائمة وتشاور مع 40 شخصاً من العسكريين المتقاعدين والمدنيين – مع أناس أعطاهم عنوان "أيدي قديمة موثوقة". كنت القائمة تشمل بعض الضباط المتقاعدين وبعض ذوي النجوم الثلاث الذين لم يكونوا مؤهلين تقنياً. وضع اثنتي عشرة ميزة لابد من تحلي رئيس الأركان الجديد بها، بما فيها "الصراحة والمباشرة – الاستعداد للمعارضة، وصولاً إلى الدعم الفعال للقرارات المتخذة".

احتمال قفز جنرال ثلاث نجوم أو ضابط متقاعد إلى منصب رئاسة الأركان أحدث موجهة صدمات عنيفة في صفوف كبار الضباط والقادة من ذوي النجوم الأربع في الوحدات العسكرية العاملة.

كان هولكومب يحاول مقابلة قائد مشاة البحرية (المارينز) الجنرال جيمس ل. جونز، ذلك الجنرال الضخم الذي يتجاوز طوله الـ 190 سنتيمتراً والذي ينطوي على جانب كوزموبوليتي. فجونز الذي نشأ وترعرع في باريس كان طليقاً باللغة الفرنسية، كان قد تخرج في جامعة جورجتاون عام 1966 حاملاً إجازة في العلاقات الدولية. كان قد التحق بالمارينز عبر مدرسة مرشحي الضباط في السنة التالية وقاتل في فيتنام قائداً لفصيلة مارينز. شغل جميع المناصب الصحيحة – كان مساعد قائد المارينز، قائد فرقة مارينز في 1997، ومعاوناً عسكرياً لوزير الدفاع وليم كوهن. كان الأخير وجونز صديقين حميمين منذ ما يقرب من نحو عقدين حين كان كوهن سناتوراً عن ولاية مين وكان جونز، الرائد آنذاك، ضابط الارتباط بين مجلس الشيوخ وقوات المارينز. كان كوهن قد ساهم في تعيين جونز قائداً للمارينز وعضواً في هيئة الأركان المشتركة. وكان جونز يعرف أن علاقته بكوهن جعلته مشبوهاً بنظر بنتاغون رمسفلد.

حين قام هولكومب بزيارة جونز، أعلن أن جزءاً من عمله لصالح رمسفلد تمثل بتحديد عدد من ذوي النجمتين والثلاث نجوم الذين ينظرون نظرة صحيحة إلى عملية التغيير. مضيفاً أنه لن يبقى في الوزارة إلا ستة أسابيع.

رد عليه جونز: "جميع الذين كانوا هنا، يا أميرال، قد قالوا ما تقوله".

اعتقد جونز أن ذلك كان جزءاً من المشكلة مع الأنموذج الرمسفلدي. الجيش الأمريكي لم يكن مركز أبحاث يصول فيه المستشارون ويجولون بأفكار كبيرة، جديدة وجريئة كما يحلو لهم.

مع ذلك بقي جونز على قائمة هولكومب رئيساً محتملاً. تم استدعاؤه دون إنذار مسبق ذات صباح سبتي للقاء مع رمسفلد حول رئاسة هيئة الأركان المشتركة. خلال الأشهر الأولى لرمسفلد في البنتاغون كان جونز قد وجد نفسه شبه جاهل بما كان الوزير يفعله. وبوصفه المارينز الأول - نظير فيرن كلارك في البحرية - لم يكن هو الآخر يحصل على نسخ من بعض الدراسات التي كان رمسفلد يكلف جهاز مستشاريه المدنيين بإنجازها.

كان جونز غنياً بالوقت على الدوام وحريصاً على احترام الجميع مهما كانت مرتبهم أو أوضاعهم في الحياة وقد فوجئ بأسلوب رمسفلد الجاف والفظ. فالوزير لم يكن أحياناً يقول ولو مرحبا. شعر جونز أن رمسفلد لم يكن، على ما يبدو، يهتم إلا بأفكاره الخاصة. صحيح أنه كان يتظاهر بأنه غارق في التأمل والتفكير، غير أنه كثيراً ما كان يطلق كلاماً لا معنى له دون أي تفكير مسبق. توصل جونز إلى استنتاج يقول إن اعداد رمسفلد المفرط بنفسه وغطرسته كانا يفسدان كل شيء. هل ثمة من كان مستعداً ليكون رئيساً للأركان أو خبيراً عسكرياً أول عنده، نظراً لأن رمسفلد لم يبد في الحقيقة راغباً في الحصول على نصيحة عسكرية من كائن من كان؟ لم يكن يريد إلا طوفاناً من المعومات والتفاصيل من الآخرين لا لشيء إلا ليغنّي الموّال الذي برأسه هو.

أقدم جونز على اتخاذ الخطوة غير المألوفة المتمثلة بالاعتذار عن المقابلة قائلاً إنه كان يريد أن يبقى قائداً للمارينز.

كان شلتون، ابن الجيش البار، قد قرر أن أفضل شخص لخلافته كان رئيس العمليات البحرية الأميرال كلارك. ومع أن كلارك لم يكن رئيساً للعمليات إلا منذ نحو

سنة، فإن أداءه مديراً لعمليات الأركان المشتركة ومديراً لمجمل جهاز العاملين كان يعني أنه كان ضليعاً بالنظام. برأي شلتون، كان كلارك ضابطاً غير عادي: لاعب فريق مع قدرٍ صارم من الاستقلال. إذا اختلف مع الآخر لم يكن يتردد في المصارحة. غير أن أسلوبه كان مباشراً دون أي تهديد. كان كلارك الضابط الوحيد القادر على معايشة رمسفلد دون التعرض للسحق مع المحافظة على قدرٍ معين من الكرامة والاستقلال لأصحاب الزي العسكري الرسمي. كان لا بد من إنجاز هذا قبل أن ينجح رمسفلد في قلب النظام رأساً على عقب وإلى غير رجعة.

مستنداً إلى شهادة الماجستير في إدارة الأعمال من جامعة آركنسو، حاول كلارك أن يبقى مواكباً اختصاصه بإطلاعه على أحدث وأجود ما يُكتب في الأعمال وإدارتها. تمثل أحد كتبه المفضلة بمؤلَّف جيم كولنز الأكثر رواجاً بعنوان **جيد إلى عظيم** عن أعمال على درجات متوسطة من الأداء ما لبثت، على نحوٍ مفاجئ، أن شهدت نمواً كبيراً. يؤكد كتاب كولنز أهمية التواضع، الانضباط، ومدى مساهمة معتقدات الفرد الأساسية في تحديد ثقافة أي مؤسسة قائمة على التعاون. كان للكتاب تأثير باقٍ في كلارك.

ما لبث السؤال الذي راح كلارك يكثر من تكراره لدى تقويمه لكبار ضباط البحرية أن أصبح متمثلاً بـ "ما الذي يؤمن به هذا الشخص في الحقيقة؟" كانت تنشأ مشكلات عند عدم تطابق معتقدات أي فرد مع ثقافة المنظمة وقيمها.

مع افتتاح "بازار" إيجاد بديل من شلتون في صيف 2001، تلقى كلارك رسالة تفيد بأن الرئيس كان سيراه في غضون عدد من الأيام.

اتصل كلارك بنائبه السابق، الأميرال جي، في مكتب رمسفلد.

"ما الذي يعنيه هذا كله؟"

"يعني أنك مرشح لتولي رئاسة الأركان،" قال غيامباستياني.

"هراء، أنا لن أقابل أحداً تمهيداً لتعييني رئيساً للأركان، أقله، دون التحدث مع دون رمسفلد. لم يفاتحني أحد بالأمر".

"سيدي أنت تمزح" قال غيامباستياني. كان رمسفلد وكلارك قد اجتمعا مؤخراً ما الذي كنتما تفعلانه داخل المكتب منذ بضعة أيام؟"

"تحدثنا عن جميع المرشحين وعن هويات اللاعبين من جهة والقادة من الجهة المقابلة في الوزارة وعن مواصفات الجميع".

"ولم تعرّجا على الكلام عنك أنت؟"

"لا!"

"أنت تحتل صدر قائمة المرشحين". قال غيامباستياني.

شعر كلارك أن من لأفضل ألا يأتي الرئيس الجديد من بين الرؤساء الحاليين لأسلحة القوات المسلحة الأربعة المنفردة. لعل المثالي هو اختيار الرئيس من بين القادة الميدانيين - الـ CINCs اختصاراً للقادة العامين - الذي يمسكون بأزمّة القوات العملياتية مثل الأميرال بلير في المحيط الهادي أو جنرال الجيش تومي فرانكس في الشرق الأوسط.

في ظل تشريع غولدووتر - نيكولز كان مركز الثقل قد انتقل من قادة الأسلحة إلى القادة الميدانيين. فقادة الخدمات، بمن فيهم هو نفسه، كانوا شديدي المحدودية والانحياز. ببساطة كانوا شديدي الحرص على تعبئة أسلحتهم الخاصة، تجهيزها، تسيحها وتدريبها. أما القادة الميدانيون فقد كانوا، بالمقابل، عاكفين على استخدام القوات وخوض الحروب. لقد كانوا قادة مشتركين - أميرال بحري أو جنرال جوي يمكن أن يقود قوات برية ووحدات مارينز - وكان مستقبل الجيش متوقفاً على العمل المشترك، على الأسلحة المتعاونة فيما بينها. بنظر كلارك كانوا بحاجة إلى قائد ميداني مخضرم، ذي باع طويل في العمل المشترك، مؤهل للارتقاء إلى منصب رئاسة الأركان. سبق لكلارك أن كان قائداً ميدانياً - رئيساً لقيادة أسطول المحيط الأطلسي، ولكن لمدة خمسة أشهر فقط قبل أن يصبح قائداً للعمليات البحرية. وبصفته الأخيرة لم يكن ذا دور عملياتي حقيقي، غير أنه كان مضطلعاً بمهمة ذات شأن أميرالاً بحرياً أول. وكان كلارك مؤمناً بأنه كان على الطريق المفضية إلى تحسين أحوال سلاح البحرية.

قال كلارك موجهاً كلامه إلى غيامباستياني: "لن أذهب لمقابلة رئيس الجمهورية ما لم تحدث، أقله، مع دون رمسفلد عن هذا الأمر، من قبل".

7

نجح الأميرال غيامباستياني في إقحام موعد لكلارك مع رمسفلد في الساعة السادس والدقيقة الخامسة والأربعين من مساء أحد الجُمَع. كان رمسفلد مستعجلاً ذلك المساء، فاتفقا على اللقاء يوم الأحد بعد الكنيسة.

افتتح كلارك الكلام بقوة: "لست ذاهباً إلى هناك للتحدث عن هذا الأمر. فأنت وأنا لم يسبق لنا حتى أن ناقشنا الأمر". أبلغ كلارك رمسفلد بأن عليهما أن يناقشا جميع القضايا وصولاً إلى تحديد أولوياتهما وأهدافهما ومعتقداتهما. هل هما متطابقان؟ ما الذي يريده رمسفلد؟ لابد لهما من أن يتفاهما. ثمة قدر كبير من الفوضى فيما يخص دور رئيس الأركان. كان كلارك مؤمناً بتحديد الأولويات؛ في البحرية كان متركزاً على خمس أولويات. إذا كانت لديك مئة أولوية، فإن شيئاً لا يُنجز. ما كانت أولويات رمسفلد بالنسبة إلى مجمل المؤسسة العسكرية الأمريكية، مجمل القوات المسلحة في الولايات المتحدة؟

أزاح رمسفلد الأسئلة المطروحة جانباً.

مقتحماً لب الموضوع ومدركاً أنها المرة الأولى التي يقتنص فيها فرصة التعبير عن مشاعره الحقيقية إزاء رمسفلد والبوح بما يعتمل في صدره، قال كلارك: "أنت لا تثق بنا".

آخذاً وضعية الطبيب المعالج بأفضل ما يستطيع من براعة رد رمسفلد: "بالعكس، أنا واثق بك بكل تأكيد، بالطبع. أنت قائد بحرية الولايات المتحدة". ثم دار قليلاً وتابع: "كيف تستطيع أن تقول ذلك؟" بلهجة بدت صدامية من ناحية وشاكية من ناحية أخرى. وبعد ذلك استعاد الدور اللائق بالدكتور رمسفلد قائلاً: "عندي ثقة كبيرة،" مضفياً قدراً كبيراً من الجدية على اللهجة.

أدرك كلارك أن المبالغة في الإطراء كانت طريقة استثنائية الفعالية لاستبعاد موضوع الثقة. لم يرغب في أن يكون لجوجاً وصغيراً في هذه المقابلة غير أنه لم يهمل طرح مسألة جميع الدراسات والتقارير التي دأب رمسفلد على حجبها عن رؤساء

الأركان المشتركة. قال كلارك: "سيادة الوزير منَعْتَنا من الانخراط في هذه العملية. لذا، فأنا لم أقرأ إلا تلك المسموح لي أن أطلع عليها من مواد، حتى الآن ثمة أشياء لا تزال محجوبة عنا".

"أنا لست واثقاً من أننا، أنت وأنا، يا سيادة الوزير في الخانة نفسها حتى نتمكن من قيادة جيش الولايات المتحدة وكي أتمكن أنا من أن أضطلع بمهام مستشارك العسكري الأول. إذا كنت سأصبح مستشارك العسكري الأول يجب أن تعرف كيف أفكر كما يجب أن أعرف أنا كيف تفكر".

ألمح رمسفلد إلى أن كلارك كان يبالغ في تقدير أهمية حزمة أوراق وطمأنه بلى: "أننا سنجد وقتاً آخر للكلام عن هذا الأمر".

"أكثر من أي شيء، سيدي، لا أريد أن أذهب إلى البيت الأبيض غداً وأن أجتمع بالرئيس بوش حيث سيكون سؤاله الأول "هل أنت موافق يا فيرن على أن تصبح رئيساً للأركان؟" لسنا مستعدين لمثل هذا الحوار".

"حسناً، لا بأس" قال رمسفلد "الرئيس لن يعرض عليك المنصب غداً. لن يتم التعامل مع الأمر بهذه الطريقة. ليست هذه إلا مقابلة أولية".

إذن بات كلارك قادراً على الموافقة: "أنا جاهز غداً، سيدي!"

قبل اجتماعه مع بوش قام الأميرال كلارك بنبش نسخة من قانون غولدووتر – نيكولز عنوان اكس المتعلق برؤساء الأركان المشتركة ورئيس هيئة الأركان. فضلاً عن تسمية الرئيس (رئيس هيئة الأركان) "المستشار العسكري الأول" لرئيس الجمهورية، وزير الدفاع ومجلس الأمن القومي، كان لقانون يقول إن رؤساء الأسلحة الآخرين كانوا أيضاً مستشارين، وإذا ما اختلفوا مع رئيس الهيئة فإن وجهات نظرهم يجب تقديمها أيضاً. وفي الطريق إلى البيت الأبيض، ذكر كلارك نفسه أن عليه أن يؤكد أن رؤساء الأركان المشتركة لم يكونوا جوقة رجل واحد.

كان تعامل كلارك الفعلي الوحيد مع بوش قبل ستة أشهر في العشرين من كانون الثاني/يناير 2001، يوم عرض تنصيب بوش. لدى مرور قطعة بحرية كبيرة بالمنصة المنصوبة أمام البيت الأبيض، صعد كلارك، بوصفه كبير الأميرالات، إلى المنصة. حيا بوش ووقف بجانبه واصفاً وحدات البحرية المختلفة. مع مرور الوحدة الأخيرة، صفق كلارك عقبيه وحيا ثانية.

قال: "سيادة الرئيس، يسعدني أن أكون هنا اليوم وأن أكون جزءاً من هذا الحدث المهم. وجميع رجال ونساء بحرية الولايات المتحدة مستعدون للخدمة تحت قيادتك. شخصياً أريدك أن تعلم بأنني سأصلي من أجلك".

كان بوش قد ابيضَّ.

جرى استقبال كلارك في المكتب البيضوي من قبل بوش، تشيني ورمسفلد. بعد بضع لحظات من الكلام العام الخفيف قال الرئيس: "حسناً يا فيرن ما رأيك في أن تصبح رئيساً لهيئة رؤساء الأركان المشتركة؟"

نظر كلارك إلى رمسفلد، وأدرك أنه كان مضطراً لمراقصة هذه المسألة مراوغة. لاذ بأسلوب الإكثار من الكلام دونما هدف، ذلك الأسلوب الذي تعلمه حين كان عضواً في نادي الروتري، كي لا يقول شيئاً حاسماً. أطنب في الكلام عن مدى اعتزازه وفخره بمتابعة الخدمة رئيساً للبحرية وعن أن المشاركة والعمل الجماعي الذي يقوم على التنسيق بين الأسلحة كانا يجسّدان المستقبل.

طرح بوش بعض الأسئلة العامة عن البحرية.

كان خطاب كلارك الرئيس والمفضل جاهزاً ومحفوظاً عن ظهر قلب فسارع إلى إدراج أولوياته الرئيسة الخمس في مجال تغيير البحرية مع نوع من التركيز على الناس، الجهزية وبناء السفن الجديدة.

آملا أن يعزف لحناً صغيراً مؤهلاً لإمتاع مسامع بوش أفاد كلارك بأن الأمة كانت في "التسعينيات قد وضعت حداً للكلام عن الأسلحة، بما فيها الجيش. أضاف: صار يقال: "دور بحريتي فيه. تركز كل شيء على "أنا، أنا؛ لي، لي!" أنا لا أحصل على هذا ولا أحصل على ذلك. أين هو الشعور الجماعي في الحياة وعن الحياة؟ أنا شخص مؤمن، أريدك أن تعلم".

اكتفى الرئيس بتحريك رأسه مومئاً.

تابع كلارك كلامه قائلاً: "كان أبي واعظاً". قبل اجتماعه الأول بوصفه رئيساً للعمليات البحرية مع جميع مرؤوسيه من الأميرالات قال له أحد المعاونين "نحن بحاجة إلى اجتماع قيامة، اجتماع بعث". ثم روى قصة خطابه الموجه إلى الأميرالات قائلاً: "نحن أناس خدمة. ونوعية الخدمة تعني أكثر من نوعية الحياة المجردة" – الرعاية

الصحية، المجمعات السكنية الملحقة بالقواعد وغيرهما من المكاسب الجانبية. كانت الخدمة تعني "سنبدأ الكلام عن نوعية العمل". كانت الخدمة تعني أن تهب نفسك وتكرسها لهدف أسمى.

قال كلارك: "الرسالة هي الرقم واحد. لم يقم المؤتمر القارّي بإيجاد البحرية لتمكننا من رسم خيال جميل على الأفق. واجبنا هو أن ننقل المعركة إلى العدو".

أتى كلارك على ذكر أن رمسفلد كان مولعاً بالكلام عن "التغيير" و"التحويل" وهو يعني التحديث والتطوير في المؤسسة لعسكرية. أفاد بأنه كان منخرطاً في عملية "التحويل" قبل أن تصبح الكلمة دارجة، بالتأكيد قبل أن يصبح بوش رئيساً للجمهورية ورمسفلد وزيراً للدفاع.

لم ينبس تشيني ببنت شفة، وبعد "لاجتماع لم يقل رمسفلد شيئاً لكلارك. شعر كلارك أن اللقاء كان مملاً، ثقيل الظل، وأن أحداً لم يتعلم شيئاً باعتقاده.

بعد أسابيع تبلغ كلارك رغبة تشيني في لقائه وحده. تحدد وقت الاجتماع بعشرين دقيقة، حفاظاً على الشكليات على ما بدا. كان البيت الأبيض مستمراً في المعاينة وأحس كلارك أنه لم يكن مرشحاً جدياً. غير أنه كان يملك وقتاً للاستعداد.

قال كلارك: "لا أعلم ما إذا كنت تتذكر، غير أنني كنتُ "الزيون" الداعم لك خلال حرب الخليج. كنت "الزيون" الذي حوّل أكداس أوامر الانتشار إليك".

تظاهر تشيني بالنسيان. كان كلارك نقيباً بحرياً في تلك الأيام.

عن الوضع الإجمالي للمؤسسة العسكرية، ألمح كلارك إلى أن ساعة التكيف الصعب قد أزفت غير أنه كان يشعر بأن مبادئ التحويل التي يعتمدها رمسفلد كانت صحيحة.

أراد تشيني أن يعرف كيف أصبح رئيساً للعمليات البحرية.

أفاد كلارك بأن جهاز العاملين المدنيين لدى وزير الدفاع وليم كوهن في 2000 كان قد سأله: "ما السبيل إلى أصلاح هذه المؤسسة يا فيرن؟" وكان يعني بـ "المؤسسة" سلاح البحرية. قال كلارك إن جوابه تمثل بعبارة "إنهم يختارون الأشخاص غير المناسبين" واحد فقط من أميرالات القمة الخمسة في البحرية كان قد عمل قائداً لمجمع حاملة طائرات قتالية. ثمة عدد أكبر مما ينبغي من أميرالات المكاتب والطاولات. كان اختيار القادة المناسبين ممن يستندون إلى الخبرة العملياتية المناسبة أمراً حاسماً. ثم نصح نائب الرئيس قائلاً: "مهما فعلت حاول مع تكرر ذلك!"

بدأتُ "مجنون دراسة" أو "مجنون مدارس" بالنسبة إلى الأميرالات الجدد. بدلاً من التثقيف القديم للضباط القادة بشؤون الأتكيت، بكيفية الإمساك بالسكين والشوكة في السفارات الأجنبية أو في البيت الأبيض، يجري الآن إخضاع هؤلاء القادة المبتدئين لدورة أسبوعين متركزة على قضايا جوهرية. قال: "الأميرالات لا يعرفون شيئاً عن المالية". يعرفون فقط كيف ينفقون الأموال، لا كيف يتدبرون أمر الموازنات. لابد من تعليم الأميرالات الشؤون المالية الحقيقية. من دراساته حول بلوغ مستوى المدير التنفيذي، حاول أن يدفع الأميرالات إلى توزيع أوقاتهم وفقاً لأنموذج الأعمال الحديث: ثلث الوقت للأولويات الرئيسة، الثلث الثاني للتنفيذ والتطوير، والثلث الأخير لتقويم المنتج أو النتائج.

أضاف كلارك: "اعلم أننا في هذه المدينة لا نفعل البند الأخير ثالثاً. نكتفي بوضع ميزانية جديدة. ذلك خطأ. لابد لنا من أن نتعلم كيف نحسّن الأداء. ذلك هو ما أدعو "زباني" إلى تعلمه. كان هذا جزءاً من برنامجي. لم يكن برنامج دون رمسفلد. ذلك هو ما أتينا إلى هنا لنفعله".

كان تشيني مستقبلاً فتحول كلارك إلى أحداث جرت في أثناء إدارة كلنتون. بدا واضحاً أن نائب الرئيس كان مولعاً بسماع قصص الحرب القديمة هذه.

قال كلارك: "تأكد من وجود أشخاص يقولون للرئيس الحقائق والوقائع كما هي بدقة لا كما كنا نفعل في كوسوفو". أعاد كلارك رواية قصة أنه، بوصفه مديراً لعمليات الأركان المشتركة، أو الجي - 3، كان قد حضر سلسلة اجتماعات البيت الأبيض في 1999 حين قرر كلنتون أن يعالج عمليات التطهير العرقي التي كان الزعيم اليوغسلافي سلوبودان ميلوسوفيتش يمارسها. إما خطأ في الحسابات أو مجرد رغبة في إعطاء صورة وردية للوضع، كان مستشارو الرئيس كلنتون قد قالوا له في البداية إن ميلوسوفيتش سيتراجع إذا ما تهدد. وعندما لم يفعل قيل لكلنتون إن من شأن القصف أن يحقق الهدف.

"كان الاعتقاد السائد هو أن الأمر كله لن يستغرق أكثر من 48 ساعة ثم 72 ساعة" قال كلارك. تطلب استسلام ميلوسوفيتش 78 يوماً من القصف. "كنت بحاجة إلى حشد من الأطباء النفسيين لضمان عدم إقدام جميع الوزراء على الانتحار بقطع شرايين أرساغهم، لوقوعهم في هذا الخطأ الشنيع لدى تقديم صورة ما سيحصل والدفاع عن

وجهات نظرهم لإقناع الرئيس". بعض أعضاء فريق الأمن القومي عند كلنتون كانو يبيعون الأمل فاقدين كل صلة بالواقعية، قال كلارك.

ثم أضاف: "لابد من التأكد يقيناً من أن وضعاً مماثلاً لن ينشأ أبداً".

أفاد كلارك إن التفاؤل في كوسوفو كان بالغ العمق إلى درجة أنهم وضعوا خطة قصف لمدة 72 ساعة دون أي شيء بعد ذلك. "صفر" قال كلارك. لا خُطّة إذا ثبت أن التفاؤل باطل، فوقعوا في حيص بيص، راحوا يتخبطون. أكد كلارك لوزير الدفاع السابق قائلاً: "بخلفيتك هنا ستكون قادراً على الاضطلاع بدور في هذا الأمر يكون مختلفاً عما سبق له أن حصل منذ زمن. وكرمى للرب اختاروا رئيساً للأركان مؤهلاً للحيلولة دون تكرر ذلك بالمطلق".

بدا تشيني كتلة ابتسامات عريضة، آلة تسجيل تلتهم كل كلمة، تواقاً لمواصلة الإصغاء. فليواصل كلارك استطراداته، إذن، قائلاً إن الجنرال شلتون كان قد أصر على الرؤساء طالباً منهم قراءة كتاب: **إهمال الواجب: لندون جونسون، روبرت مكنمارا، هيئة رؤساء الأركان المشتركة، والأكاذيب التي قادت إلى الحرب الفيتنامية**، وهو كتاب صدر عام 1997 من تأليف خريج الوست بوينت في 1984، اتش آر ماكماستر. إن القادة العسكريين خلال حرب فيتنام كانوا ضعافاً وأخفقوا في تقديم أفضل ما لديهم من نصائح، برأي كلارك. لم يكن رؤساء الأركان والعمليات يتعاونون كما لم تكن ثمة أي ألفة ومودة بينهم وبين القيادة المدنية.

أكد كلارك أن قادة الحقبة الفيتنامية العسكريين كانوا فاقدي القدرة على التأثير في العملية بما يحول دون وقوع الرئيس في خطأ التورط بأمور كارثية بالنسبة إلى الأمة. فقدوا أصواتهم، باتوا عاجزين عن التحلي بالصراحة والصدق مما مكن مكنمارا من التلاعب بالنظام. إن البلاد والمؤسسة العسكرية دفعتا أثماناً باهظة: "سيادة نائب الرئيس ابذل كل ما لديك من جهد لضمان اختيار قائد عسكري لن يسمح لذلك بأن يحدث مرة أخرى".

ثم عاد كلارك إلى الزمن الذي كان فيه نقيباً بحرياً أيام حرب الخليج. كان قد تابع العلاقة بين تشيني وزيراً للدفاع وبول رئيساً لهيئة رؤساء الأركان المشتركة. قال كلارك إن تلك كانت، برأيه، علاقة أنموذجية ومثالية - رئيس أركان مستقل التفكير ولكنه قريب من وزير الدفاع. لاحظ كلارك أن هناك توتراً بين رمسفلد وشلتون

وأضاف "تعلم بهذه الرابطة" إن وضع الشخص المناسب في المكان المناسب أمر عظيم. سيحّون الموضوع تحدياً كبيراً لرمسفلد، ثم واصل: "عندي عمل أسطوري. أتولى منصباً عظيماً. أريدك أن تتفهم ذلك. وقد بدأتْ جهودي في البحرية تعطي ثمارها، بدأتْ العجلة تدور". وقد كان ذلك شيئاً تمنى ألا ينساه رئيس الجمهورية ورمسفلد لدى قيامهما باختيار رئيس الأركان الجديد.

"حسناً" قال تشيني "يمكنني أن أرى أن من شأنك أنت أن تكون ذخراً عظيماً في هذ الموقع".

دام الاجتماع ساعة وعشرين دقيقة - بزيادة ساعة على ما كان مبرمجاً. "يا إلهي كيف حصل هذا؟" لقد بالغ في الاستطراد والإطناب ولكن اللقاء كان دافئاً. أعتقد أنه أقام صلة مع تشيني وأن الرياح بدأت تهدب بما تشتهي سفنه.

بعد مدة وجيزة تم استدعاء كلارك ثانية إلى البيت الأبيض لاجتماع ثانٍ مع بوش وتشيني كليهما لمدة ثلاثين دقيقة أخرى. لم يُبلغ بالموعد من قبل.

"سيادة الرئيس" قال كلارك "تعلمون أنني أضطلع بمهمة فظيعة هنا. ليس هذا شيأ يحلو لي أن أفعله".

"تمام" قال بوش "ذلك هو ما قيل لي. أنت لست في الحقيقة مهتماً بتولي المنصب، أليس كذلك؟ ما السبب؟"

"سيادة الرئيس، إنه لشرف لا يتكرر إلا مرة في العمر أن أكون قادراً على الخدمة". ثم أضاف إن من شأن الصعود إلى موقع رئاسة الأركان التي تتطلب قدراً مكثفاً من المشاركة أن يكون صعباً بالنسبة إلى رئيس سلاح منغمس في برنامجه الخاص وفي زحمة مشكلات سلاحه. "غير أن هناك سبباً آخر، مهم حقاً. تعلمون أن الطموح مهم بالنسبة إلى الإنسان. غير أن من شأن الطموح الزائد عن اللزوم، لدى كبار القادة العسكريين أن يكون أمراً ينطوي على الخطر، حسب ملاحظتي".

زلة لسان من كلارك ولكنها حصلت، تنبه إلى ضرورة التحلي بالحذر فيما يخص مسألة الطموح هذه. ما من أحد يمكنه أن يصبح رئيساً للجمهورية إذا لم يكن متحلياً بقدرٍ غير قليل من الطموح. حاول كلارك تصحيح الخطأ: "بالطبع ثمة أمكنة ومواقع لا تستطيع السعي إليها ما لم تكن طموحاً. غير أن المواقع العسكرية هي مواقع خدمة في المقام الأول. وأنا أعتقد أن من شأن وقوف الطموح في طريق الخدمة أن يشكل خطراً".

تدخل تشيني وقال: "كان لنا، فيرن وأنا، لقاء عظيم قبل يومين. لدى فيرن أشياء كثيرة يتابعها في البحرية، أمور أعتقد أن من المهم أن يطلعك عليها. لماذا لا تخبر سيادة الرئيس بما تقوم به في البحرية بقدرٍ أكبر من التفصيل؟"

قام كلارك بإيجاز أولوياته الخمس وأكد أهمية الناس والحاجة إلى تعريف جديد للخدمة. قال إن الاحتفاظ بالضباط والمجندين في البحرية كان يتصاعد بسبب برامج تحسين ليس نوعية الحياة وحسب بل ونوعية الخدمة. زاد الاحتفاظ كثيراً إلى درجة أنه كان موشكاً على الاضطرار لوضع برنامج يمكنه من إخراج الناس من البحرية قسراً.

قبل اللقاء كان كلارك قد اقتيد إلى غرفة روزفلت، بدلاً من قاعة الانتظار المخصصة للزوار في صالة الجناح الغربي، للانتظار. وكان يعلم أن نائب رئيس هيئة الأركان المشتركة ريتشارد ميرز كان قد قابل بوش وتشيني قبله مباشرة. أراد أن يكشف عن أنه مطلع على بعض الأمور الداخلية فقال للرئيس إنه يفهم أن الاختبار هو ربما بينه وبين ميرز. "أردت أن أقول لكم إن ديك ميرز سيكون رئيساً رائعاً". قال كلارك. كان اختياره لكلمة "رائعاً" مقصوداً. "رائع" فقط، لا "عظيم" أو "مثالي".

قال كلارك إن من الحيوي أن يقوم بوش باختيار رئيس للأركان يفضي إعلانه إلى جعل الجيش يقف استعداداً ويهتف موافقاً. أضاف كلارك أن من الحاسم أن يثق الرجال والنساء في سائر فروع القوات المسلحة من أدنى المراتب إلى كبار القادة واثنين بقادتهم. إنها قضية بالغة الأهمية لا على صعيد التجنيد والاحتفاظ فقط، بل وفي مجال الأداء أيضاً. "إن جيشاً لا يحترم قادته لن يزدهر".

ورداً على سؤال الرئيس عن دور أي رئيس للأركان المشتركة أفاد كلارك بأنه مستشار عسكري أول لرئيس الجمهورية، لوزير الدفاع ولمجلس الأمن القومي معلقاً أنه كان مديراً للأركان المشتركة وعارف بانقانون. غير أن هذا الرئيس (رئيس الأركان) "يعمل في المقام الأول وعلى نحوٍ رئيس لوزير الدفاع" مضيفاً أن قانون غولدووتر - نيكولز يقضي بأن يكون الرئيس ممثلاً لوجهات نظر وآراء الرؤساء الآخرين للأركان.

قال تشيني لكلارك: "حدّث سيادته عن تجربتك في كوسوفو. تلك التي أطلعتني عليها".

"لم أكن ذا أربع نجوم، كنت بثلاث نجوم. كنت المسؤول عن متابعة أعمال رئيس الأركان. كنت مكلفاً بتتبع الرئيس عن كثب وشخصياً". تذكر كيف كان يرافق شلتون إلى

البيت الأبيض في 1999 لحضور اجتماعات "بحث الإعداد للتدخل" ويجلس أحياناً إلى الطولة في غرفة الوزراء أو غرفة العمليات، ويجلس أحياناً خلف رئيس الجمهورية مباشرة. كان مهماً أن يجري تزويد الرئيس كلنتون بالحقائق، بتقويمات واقعية. ثم حدد كلارك قائلاً: "حين تصبح جاهزاً للضغط على الزناد لا بد لك من أن تكون متوفراً على رئيس أركان تثق به مئة بالمئة، رئيس أركان تحصل منه على القصة من ألفها إلى يائها".

أكد كلارك أن المبالغة في المزايدة مشكلة كبرى مذكراً بقصة قصف كوسوفو والحاجة إلى سلسلة من عمليات التقليص في غرفة مجلس كلنتون.

ضحك بوش.

"هذه العلاقة مع رئيس الجمهورية ورئيس الأركان مهمة إذن. ما ينطوي على أهمية فعلية هنا هو الارتباط بين وزير الدفاع ورئيس الأركان. وأنا من موقع المراقب الآن، ومستنداً إلى تجربتي العملية، كنت قادراً على رَصْد الأمر. والأنموذج الذي تريد تقليده هو الأنموذج الذي كان موجوداً حين كان ذلك "الزبون" - مشيراً إلى تشيني - وزير الدفاع وكان كولن باول رئيس هيئة الأركان".

أحجم تشيني عن التعليق غير أنه كان يعرف أن علاقته مع باول لم تكن مثالية وخالية من الشوائب كما يجري تصويرها.

"شرف لي أن أكون هنا متحدثاً إليكم" قال كلارك "غير أن من المعلوم أن ذلك هو "الزبون" الذي ستتحدثون معه في مرتبة ليست بأهمية ما سيصل إلى مسامعكم هنا عبر وزير الدفاع".

مثبتاً عينيه على بوش، تابع كلارك كلامه قائلاً: "إنها مقابلة ممتعة حقاً. وأي ارتباط بيني وبينك، إذا ما أصبحت أنا رئيس الأركان، مهم إلا أنه ليس تقريباً بأهمية الارتباط بين رئيس الأركان ووزير الدفاع. لذا فإن من المهم جداً وعلى نحوٍ استثنائي أن يتم تعيين رئيس للأركان بحيث يكون على ارتباط عظيم مع وزير الدفاع".

سأله بوش: "هل أنت على مثل ذلك الارتباط مع دون رمسفلد؟"

أجاب كلارك: "ليس بعد".

همهم بوش ثم قال: "أوكي!".

كان كلارك مؤمناً بتدخل السماء، بالقضاء والقدر. غادر الاجتماع آملاً في احتمال حصوله على المنصب ولكن شاكراً الأقدار أيضاً على الفرصة التي توفرت له لإطلاع رئيس الجمهورية ما كانت المؤسسة العسكرية بحاجة إليه فعلاً، ما كان يتعين على رئيس الجمهورية أن يفعله، وكيف كان ينبغي له أن يفكر بالقضايا العسكرية. كثيرون من زملائه كانوا مستعدين لاقتراف جريمة قتل ثمناً لمثل هذه الفرصة.

علاوةً، كان كلارك مؤمناً بأنه لم يحمل، إذا فعل، إلا القليل من الأصفاد المكبِّلة للعديد من نظرائه، ولاسيما من أكاديميات الأسلحة. كان يشعر بأنه لم يكن مضطراً إلى التملق ومسح الجوخ من أجل الحصول على المنصب.

درج شلتون على التحدث مع رمسفلد على نحوٍ منتظم، محاولاً دس أنفه في عملية اختيار خَلَفه. ونظراً لأن الأمر كان قد استقر الآن على إما كلارك أو ميرز، شعر شلتون أنه مدين لرمسفلد بنصيحة.

قال شلتون: "فيرن هو الأفضل بما لا يقاس". كان كلارك سيتصدى لرمسفلد بقوة وهذا بالتحديد ما كان الأخير بحاجة ماسة إليه. أما ميرز فكان النقيض مئة بالمئة. كان سيطرح وجهة نظره، ولكنه لم يكن ليتردد، إذا ما اعترض رمسفلد، في الترجع والإذعان. كان شلتون قد رأى ذلك يحدث.

ابتسم رمسفلد واكتفى بإطلاق كلمة "أوكي".

لم يفاتح شلتون أياً من كلارك أو ميرز حول نصيحته. لم يكن قادراً، على الإطلاق، على تحديد المسار الذي كان الأمر سيستقر عليه، وقد كان في غنى عن أي توتر أو حدة.

في هذه الأثناء تناول ستيف هيربتس طعام الغداء مع رمسفلد الذي أقر بأن اختياره بات في الحقيقة متأرجحاً بين كلارك وميرز.

قال هيربتس: "إذا كنت تريد لعملية التحويل أن تتحقق في هذا المبنى، فإن الرجل المناسب هو فيرن كلارك. إنه لامع ولماح تحليلياً، إنه قائد تغيير، إنه يعرف كيف يحرك الناس". كان كلارك قد تلقى أكثر الثقافات لعسكرية عناداً - ثقافة بحرية الولايات المتحدة. "إنه يتقن فن اقتناص عناصر التغيير. لقد عيّر سلاح البحرية. قام بعمل لا يصدق".

غير أن ميزة واحدة كان يجب تسجيلها في خانة ميرز برأي هيربتس إذ قال: "إذا كان ثمة أي احتمال للذهاب إلى حرب، فإن من الأفضل أن تختار ديك".

"لماذا؟"

"لأن لدى ديك خبرة أوسع في مجال خوض الحروب، أجاب هيريتس. كان ميرز قد طار 600 ساعة قتالية في أجواء فيتنام. وعلى الرغم من انقضاء ثلاثة عقود على التجربة، فإن الذكرى قد تكون ذات أهمية رمزية. "والجيش سيثق به أكثر في أي وضع عسكري مقارنة بفيرن المتمتع بسائر المواصفات المؤهلة باستثناء الخبرة القتالية".

8

بعد يومين من المقابلة، قام رمسفلد باستدعاء كلارك. كان الأخير يبحث عن أي دليل يؤكد أنه كان مرشح رمسفلد، غير أنه ما إن دخل الغرفة حتى بات قادراً على الإحساس بأن الجو كان مشحوناً بالتوتر. لم يكن الأمر ناجماً عن افتقار الرجلين إلى علاقة عمل ودية أو عجزهما عن التعايش، بل عن حقيقة أن الاجتماع اقتحم لب الموضوع مباشرة.

افتتح رمسفلد الكلام قائلاً: "حسناً، عقدت الاجتماع مع رئيس الجمهورية".

أكد كلارك أن اللقاء كان جيداً، تبادلاً صحياً للآراء، غير أنه أعاد تأكيد مخاوفه. قال كلارك: "تحفظاتي تبقى هي هي. أبلغت رئيس الجمهورية بأن الشيء الأهم فيما يخص الاختيار لا يتمثل بالعلاقة بين "الزيون" العسكري ورئيس الجمهورية، بل بالعلاقة بين هذا "الزيون" العسكري ووزير الدفاع. وأوردت أنموذجاً ما سبق لي أن كنت شاهداً عليه فيما بين كولن باول وديك تشيني. وسألني الرئيس عما إذا كنت على علاقة مماثلة معك فقلت ليس بعد".

بدا رمسفلد أكثر صبراً مما هو مألوف، فبادر كلارك إلى السؤال عن المعتقدات. بم كان رمسفلد مؤمناً بالفعل. "لن أستطيع أن أكون رئيساً للأركان في وزارتك وأن أقف أمام العالم بوصفي كبير مستشاريك العسكريين ذراعاً بذراع إلى أن أعرف بماذا تؤمن".

كانت زحمة من الدراسات الرمسفلدية متطايرة هنا وهناك – عن منظومات السلاح، الاستراتيجيات، الخطط الحربية، الإطارات – وللمرء أن يختار أياً منها. كان ثمة 18 فريق عمل عاكف على إنجاز الدراسات. كان كلارك يرى أن بعض الدراسات بدت مثيرة للسخرية، إلا أنه استفهم عنها بقدرٍ أكبر من اللباقة، ولاسيما تلك الدراسة التي أوحت بإمكانية كسب جميع الحروب من قاعدة وايتمان الجوية في ميزوري، قاعدة طائرات البي – 2 القاذفة التي تستطيع، مع تجديد التزود بالوقود في الجو، أن تطير لمدة خمسين ساعة في مهمات قصف متواصلة وصولاً إلى الطرف الآخر من العالم.

دراسة رمسفلدية أخرى كانت تشير، بالمثل، إلى إمكانية إدارة الحروب من الأفق من مسافات تصل إلى المئات بل الآلاف من الأميال دونما حاجة إلى نشر قوات متقنعة. فالبحرية نفسها عملية انتشار متقدم بما فيها من حاملات طائرات وأساطيل في عرض البحار والمحيطات وأمكنة قريبة من بؤر مواجهة الاضطرابات. هل كان رمسفلد يظن أن كل المشكلات قابلة للحل بوضع الإشارات على الأهداف من مسافات بعيدة جداً؟

لم يرد رمسفلد على السؤال. بدا معقود اللسان في الحقيقة. رأى كلارك أن فيض الدراسات - تلك الفعالية الشبيهة بفعالية خلية النحل وسطوة ما هو ملحّ - كانت قد أغرقت رمسفلد. لم يكن يعرف التفاصيل أو لم يكن متوفراً على ما يكفي من الفهم الاستراتيجي للانخراط المريح في أي نقش حول رسم إطار المؤسسة العسكرية.

سأل كلارك متحدياً: "هل تظن أنك ستغير وجه التاريخ وستتعامل مع أي عدو محتمل للأمة دون أن تتسلل أي قذارة إلى ما تحت أظافرك؟ إذا كان ذلك ما تظنه وتؤمن به فأنت وأنا لن نستطيع أن نتعاون، أن نعمل معاً لأننا لا نؤمن بالأشياء نفسها".

"لم ننجز أياً من تلك البضاعة بعد،" قال رمسفلد معترضاً. كان غارقاً بالفعل في بحر من الدراسات والخطط. مفهوم التحويل كان يعني تفكيراً جديداً، وقد أراد أن ينشر شبكة عريضة، أن يغوص عميقاً في لب القضايا وأن "يمشّط" جميع المسائل "سلكياً".

سأل كلارك عن رؤساء الأركان ودورهم، ولاسيما دور الأركان المشتركة. أكد كلارك أن الأركان المشتركة ثروة قومية، غير أن الوزير ميال إلى الاستخفاف بها، بل والافتراء عليها. قال كلارك إن رمسفلد كان مخطئاً مئة بالمئة في هذا الأمر.

اعترض رمسفلد مرة أخرى. ما توفر من دراسات لم يكن يساوي الورق الذي كُتب عليه برأيه، كما لم يكن آنياً ومفيداً. لماذا يكون رئيس الأركان بحاجة إلى رئيس للتخطيط، أو إلى ناطق باسمه، ضابط ارتباط مع الكونغرس أو محام؟ سأل رمسفلد مكرراً ملاحظاته السابقة التي سبق له أن أسمعها لشلتون. "ما الذي يمنعه من استخدام محامي الوزير؟"

رد كلارك قائلاً إن رئيس الأركان يتعامل مع قادة العالم العسكريين. وهو بموجب القانون أحد أعضاء مجلس الأمن القومي. "يُطلب منه أن يطرح أفكاراً حول مسائل التخطيط كلما عقدتم اجتماعاً يا حضرات الرؤساء،" مشيراً إلى اجتماعات أعضاء مجلس الأمن القومي الرئيسين بغياب رئيس الجمهورية.

دبت النار في رمسفلد.

تابع كلارك كلامه: "إذا ما تم اختياري رئيساً للأركان فسوف أبادر إلى التبني الكامل لجميع مسؤوليات المستشار العسكري لرئيس الجمهورية". فالمنصب يقضي بتقديم المشورة المستقلة. "إذا اختلفنا، يهمني بالطبع، أن يجري تسليط الضوء على موقفي لأن ذلك هو ما نص عليه القانون".

علق رمسفلد ساخراً: "حسناً، أريد أن كون وزيراً للدفاع مدة أربع سنوات وأنجز تأليف كتابي الخاص قبل أن أهتدي إلى أجوبة جميع تلك الأسئلة".

وقف كلارك وهو يقول: "كلانا يعرف أن ذلك ليس ما أتحدث عنه".

"أقدر أن لا جدوى في المزيد من الكلام،" قال رمسفلد.

"موافق" قال كلارك ودار على عقبيه وخرج من المكتب. ذهب فوراً لرؤية شلتون.

قال رئيس البحرية "أحرقت جسوري اليوم" وراح يصف الاجتماع الزاخر بالألم والمجد. ثم أضاف: "لن أصبح رئيساً للأركان أبداً".

"نعم" قال شلتون ضاحكاً، "تقديري هو أنك لن تفعل".

فيا بعد سألت رمسفلد عن كلارك. "شخص استثنائي" قال رمسفلد. غير أن مسألة توليف منصب رئاسة الأركان كانت، على ما يبدو، قضية حساسة، لأنني حين ذكرت أنني سمعت أن الجنرال شلتون كان قد أوصى بكلارك، رد الوزير: "لا علم لي بذلك".

ثم دخلنا في مباراة مصارعة حول التعابير.

بدأت: "لا تعتقد أنه فعل ذلك –".

"أنا لم أقل اعتقدت أو لم أعتقد. قلت لا علم لي بذلك. أنا دقيق جداً. إذا قلت عن شيء ما إنك لا تتذكره فلن أصر على أنه خطأ كما لن أقول إنه صواب. سأقول لا علم لي بذلك".

"موافق".

"وأنا لا أفعل".

"أنت لا تتذكر، وبالتالي فأنت..".

"لا أتذكر ذلك". قال أخيراً رداً على السؤال. أما عن كلارك فقال: "لم يبد راغباً في شغل المنصب. كان متطرف الانشغال بالبحرية، عاكفاً على القيام بعمل بالغ الروعة، ولم أشعر بأنه كان ميالاً، متطلعاً بلهفة إلى تولي المنصب". كان كلارك يحتل مرتبة عالية من قائمة مرشحية وكان رئيس الجمهورية يعرف ذلك، كما أفاد رمسفلد مضيفاً: "غير أنني من النوع الذي يريد شخصاً راغباً في فعل شيء، لأن هذه الأمور مهمات صعبة وتتطلب قدراً كبيراً من الجهد. يبدو لي أن المرء يجب أن يكون ميالاً، مندفعاً إلى الأمام، كي يقوم بأي عمل. وشعرت أن فيرن لم يكن كذلك".

سألت عما إذا كان كلارك قد قال إنه سيكون ملزماً بالقانون، إذا أصبح رئيساً للأركان، بتقديم مشورة عسكرية مستقلة إلى رئيس الجمهورية.

"بالتأكيد. ذلك يطفو على السطح دائماً، وأنا موافق. ذلك هو القانون. بالمنطلق ليس إلى رئيس الجمهورية وحسب، بل وإلى مجلس الأمن القومي".

"هل تتذكر صداماً حقيقياً معه؟"

"لا، بكل تأكيد".

بعد أربعة أيام من اجتماع قيام كلارك بحرق الجسور مع رمسفلد، يوم السبت الواقع في 11 آب/أغسطس، نشرت جريدة عاصمة البلاد اليومية المحافظة **الواشنطن بوست** على صفحتها الأولى مادة تحت عنوان: "الأميرال الأوفر حظاً في تولي رئاسة هيئة الأركان؛ قيل إن بوش مُعجَب بكلارك".

ذهب التقرير الذي كتبه روان سكاربورو، وهو على صلات جيدة مع إدارة بوش، إلى قول إن: "مصدراً مرموقاً أعلن ليلة البارحة أن الأميرال كلارك هو اختيار السيد بوش". ومع ملاحظة أن كلارك "عميق التدين" ورد أيضاً أن أحدهم أفاد بأن كلارك يشبه نائب الرئيس تشيني "من حيث المظهر والمزاج العملي".

كان كلارك يلعب الغولف صباح اليوم التالي في قاعدة أندروز الجوية. كان في جولته التاسعة، موشكاً على الفوز، في إحدى أفضل مبارياته خلال حياته كلها، حين اتصلت زوجه كوني به عبر هاتفه الخليوي لتقول: "خرجت واشتريت هذه الجريدة التي يقول عنوانها إنه أول المرشحين لتولي رئاسة هيئة الأركان،" مضيفة أن جرس هاتفهم الأرضي يكاد ينفجر من فرط الرنين.

ضرب كلارك ضربته فوراً خارج الحدود، سدد ضربة أخرى، أخرجها إلى خارج الملعب، ثم ما لبث أن اختتم اللعبة.

في الرابع والعشرين من آب/أغسطس 2001، خارج مزرعته في كروفورد التكساسية قدم الرئيس بوش الشخص الذي اختاره ليكون رئيس هيئة الأركان الجديد. تركزت تعليقات الرئيس على تدريب الجيش، تجهيزه، تعبئته وتحويله. "الوزير رمسفلد وأنا فكرنا طويلاً وملياً بهذا الاختيار المهم ونحن متفقان مئة بالمئة وبحماسة" – إنه الجنرال الطيار ريتشارد بي ميرز. وعد بوش بالتعاون الوثيق مع ميرز، "الذي سيتضمن استحرار بقاء وجهة نظر الجيش مسموعة دائماً في البيت الأبيض".

كان رمسفلد قد أبلغ بوش وتشيني أن أقصى ما كان يحلم به كلارك هو أن يبقى رئيساً للعمليات البحرية، فوقع اختيارهما على ميرز.

كان كلارك في إجازة مع زوجه حين سمعا إعلان بوش مباشراً. اتصل به رمسفلد في السيارة ليطلعه على النبأ "طازجاً" وليشكره على متابعته للعملية حتى النهاية. كان حواراً مفعماً بالود.

"واو" صرخ كلارك وقال لزوجه: "كان ذلك جميلاً".

كان ميرز البالغ الـ 59 من العمر ورئيس مجلس الوسامة الطلابية لبقاً ومنضبطاً. نشأ في كانساس وتخرج في جامعة ولاية كانساس حاصلاً على إجازة في الهندسة الميكانيكية قبل التحاقه بالقوات الجوية في 1965 حين كانت الحرب الفيتنامية متصاعدة. قاد طائرات نفاثة مقاتلة من طراز فانتوم إف – 4 في مهمات قتالية خطرة على ارتفاعات منخفضة فوق فيتنام الشمالية لمهاجمة أهداف أرضية. وفي جولة ثانية قاد غارات جوية معروفة باسم مهمات ابن عرس البري المراوغة ضد بطاريات صواريخ أرض – جو الفيتنامية الشمالية. كان قد أمضى أربع سنوات رئيساً لقيادة الفضاء ثم تولى منصب نائب رئيس رؤساء الأركان لمدة سنة ونصف. لعدد من الأصدقاء اعترف بأنه كان يحلم بمنصب رئاسة هيئة الأركان.

خاب أمل شلتون. وكما كان يشك من زمنٍ طويل فإن رمسفلد لم يكن، على ما بدا، يريد رئيساً للأركان إلا بالاسم. كان الاختيار يعني أنه عند اتخاذ أصعب القرارات لن يكون ثمة أي شخص في الزي العسكري متمتع بالموقع وبدعم القانون مستعداً لتقديم

مشورة بديلة إلى رئيس الجمهورية وليقف في وجه رمسفلد. من جميع النقاشات التي دارت خلال أشهر الإدارة الجديدة الأولى، بدا وكأن أهم القضايا متمثلة بكيفية بناء نظام دفاع صاروخي، نوعية المعدات والتجهيزات العسكرية التي ينبغي شراؤها، وكيفية إعادة تنظيم وتحديث القوة. جرى تكريس الوقت والجهد على نحوٍ شبه حصري على تلك المشكلات، وقد كانت لب ملاحظات بوش لدى تقديم ميرز.

غير أن شلتون كان أفضل معرفة. كان قد خدم في فيتنام وشغل منصب مساعد قائد فرقة العمليات الـ 101 المحمولة جواً في حرب الخليج عام 1991. القرارات الصعبة حقاً كانت حول استخدام القوة العسكرية - بموجب أي استراتيجية وخطة، أي أنماط من القوة، متى، بأي قدر، ضد أي أعداء أو تهديدات. إن قرار الذهاب إلى الحرب يحدد صورة أي أمة، لا بنظر أعالم وحسب، بل بنظر الأمة نفسها. فالحرب هي العلة الجوهرية لوجود الجيوش. من شأن تلك القرارات أن تعني موت الآلاف. إن الرجال والنساء الـ 4.1 مليوناً الذين يؤلفون القوات المسلحة الأمريكية معتمدون على رئيس هيئة الأركان المشتركة بوصفه ممثلهم على الطاولة حين يعكف رئيس الجمهورية ومجلس الأمن القومي على رَوْز مثل هذه القضايا وإشباعها بحثاً ونقاشاً. مع ميرز كان شلتون يخشى من أن يتم كتم ذلك الصوت، إسكاته.

في السادس من أيلول/سبتمبر 2001 جرى تثبيت الجنرال جون بي جمبر، طيار مقاتلي تولى منصب مساعد عسكري لاثنين من وزراء الدفاع، رئيساً لأركان القوات الجوية - في منصب يوازي منصب الأميرال كلارك في البحرية والجنرال جونز في المارينز.

ما إن وصل جمبر إلى مكتب رؤساء الأركان المشتركة واحتل مكانه، حتى حذره جونز قائلاً: "أهلاً وسهلاً في أكثر المجموعات التي يمكن أن ترتبط بها إحباطاً. المسورة العسكرية اغتصبَتْها القيادة المدنية. باتت مكبوتة".

جاء إعلان تنصيب ميرز قبل الحادي عشر من أيلول/سبتمبر 2001 بـ 18 يوماً. كان قد فوجئ فعلاً بالاختيار. كان قد قابل بوش وتشيني عدداً من المرات لفترات 15 أو 20 دقيقة حيث كانت الموضوعات متمثلة بالتحويل وعما إذا كان قادراً على العمل مع رمسفلد. كان بوش وتشيني قد طرحا أسئلة ليطمئنا إلى مدى قدرته على الخروج من زي القوات الجوية. لا يتذكر أنهما ناقشا الحرب أو الأخطاء التي ربما وقعت في كوسوفو أو فيتنام.

صحيح أن ميرز بدا متعايشاً مع رمسفلد، إلا أنهما دخلا في عدد من المشادات الحامية. كان ميرز يعتقد أن رمسفلد كان يبالغ في تضخيم حججه. ذات يوم كان قد شن هجوماً على دائرة مشتريات البنتاغون. أصر على متابعة الهجوم دون توقف قائلاً: "لابد من إصلاح هذا. إنه مخيف حقاً".

"مهلاً" قال ميرز مقاطعاً. "ذلك خطأ. أنت مخطئ". غير أنه ما لبث أن لاذ بأسلوبه الميَرْزي (نسبة إلى ميرز) المساير معبراً عن نصف موافقة قائلاً: "حسناً، سيادة الوزير، قد يكون ذلك كله صحيحاً ومن المؤكد أن نظامك ليس ممتازاً. من نواحٍ كثيرة هو بحاجة إلى تصويب وضبط". ثم انتقل إلى الوجه الإيجابي للنظام، إذ أضاف: "من الناحية الأخرى نحن ننتج المعدات العسكرية الأفضل في العالم. الجميع يرغبون في الحصول على بضاعتنا، مما يؤكد وجود شيء جيد أساساً في صلب الطريقة التي نعتمدها في تطوير الأشياء، وفي نظامنا الإجمالي الذي يطور الأشياء من المفهوم والمتطلبات العملياتية إلى أن تخرج من باب الحظيرة أو المصنع".

كان اختيار ميرز قد تسرب إلى قنوات الأخبار التلفزيونية، غير أنه لم يصدق ما سمعه بالفعل إذ ظل يقول للمراسلين الذين أمطروه بالاتصالات: "ما الذي تعرفونه أنتم أيها الأساتذة؟" إلا أن رمسفلد ما لبث أن اتصل بعد ساعتين وقال له: "لقد اخترناك رئيساً للأركان. إن رئيس الجمهورية اختارك رئيساً للأركان". لم يقدم سبباً لاختياره بل قفز فوراً إلى نقاش حول الذي ينبغي أن يكون نائب رئيس الأركان الجديد. قررا بسرعة أن الشخص المناسب هو جنرال مارينز خريج أكاديمية بحرية في 1967، هادئ، كان في فيتنام والصومال يدعى بيتر بيس.

بعد أن أصبح رئيساً للأركان، وجد ميرز أن رمسفلد يتمادى في التدخل بكل صغيرة وكبيرة إلى درجة أنه صار يهمس بين الحين والآخر في أذن أحد كبار مساعديه متسائلاً عن سبب حتى وجوده هناك. عند الذهاب إلى البيت الأبيض كان يجري التدريب على تمثيل المشهد كله سلفاً. بمعنى أن الرجلين كانا يصلان إلى حالة أطلق عليها ميرز اسم "دمج العقول" حيث يكون ميرز قد كيّف عقله ليصبح متطابقاً مع عقل رمسفلد. عدد كبير من كبار الضباط بمن فيهم رؤساء أسلحة رأوا ميرز مضطلعاً بدور كبير مساعدي رمسفلد العسكريين.

صُعق آندي كارد الذي كان يحضر جميع اجتماعات الرؤساء ومجلس الأمن القومي إزاء نزوع رمسفلد ورئيس الأركان إلى التعبير عن الرأي بصوت واحد. بدا كل منهما صدى للآخر، ولا يستطيع أن يتذكر مرة واحدة كانت فيها مشورة رئيس الأركان معارضة لمشورة رمسفلد. في مرات قليلة يجد نفسه عاكفاً على التفكير بينه وبين نفسه عن مدى أهمية إحجام رئيس هيئة الأركان المشتركة عن قول أي شيء. ربما كان الصمت يعني أن رئيس الأركان لم يكن موافقاً غير أن أحداً لم يكن ليعرف الحقيقة أبداً.

في ختام مقابلة طويلة مع ميرز في مكتبه بالبنتاغون يوم 9 كانون الثاني/يناير 2002، بعد هجمات 9/11 الإرهابية بأربعة أشهر، التمستُ المساعدة منه في حل لغز رمسفلد

قال: "لو استطعت ذلك لانخفض ضغط الدم عندي كثيراً". ربما كان يوماً استثنائي الصعوبة، غير أن ميرز وضع ذراعيه على الطاولة الصغيرة ثم ركز رأسه فوقهما. لم أستطع أن أخمّن هل كان ذلك دليل سخط، علامة يأس أم بين هذه وتلك. لم يكن قد سبق لي أن رأيت هذا المشهد من قبل – ضابط كبير يركن رأسه إلى ذراعيه.

انتفض مَيَرْز واقفاً بسرعة. بصرف النظر عن السبب والحدة، كانت العاصفة قد مرت. غير أن ذلك كان بياناً لن أنساه، لقطة من الحياة كما كانت فعلاً في بنتاغون رمسفلد.

ألّفت كتاباً عن الحرب الأفغانية والرد على 9/11، وآخر عن قرار غزو العراق في أثناء عملية البحث قابلت عشرات اللاعبين الأساسيين، بمن فيهم رئيس الجمهورية، واستعرضت ملاحظات ومحاضر العديد من أعلى مستويات الحوارات الداخلية واجتماعات مجلس الأمن القومي. لا يكون ميرز في أي من الحوارات أو الاجتماعات، مُطْلقاً تعليقاً ما بين الحين والآخر، أو مقدماً إيجازاً في بعض الأوقات، إلا ليبارع رمسفلد إلى تكرار نقاطه على نحوٍ يزيدها ارتباكاً وتعقيداً. كان يبدو وكأن الوزير لم يكن قد أصغى إلى ما كان رئيس الأركان قد قاله.

أحياناً كان ميرز يسأل بعض مساعديه المقربين عما إذا كان رحيل رمسفلد وشيكاً. كان الجواب "لا" دائماً. لم يكن تعليق ميرز ليتجاوز هز الرأس أو خفضه.

كان ميرز عميق الانخراط في عملية ملء الشواغر في هيئة الأركان المشتركة. إذا ما قام رمسفلد بترشيح شخص وعبّر ميرز عن عدم قدرته على التعايش مع الاختيار، فإن رمسفلد كان عموماً يسقط المرشح ويهتدي إلى آخر يطمئن إليه. غير أنه صار

على امتلاك حق الفيتو على التعيينات الممتازة. في أحد المنعطفات أراد ميرز انتداب أحدهم إلى الأركان المشتركة، وكان لرمسفلد مرشحه الخاص. تألم ميرز كثيراً حين تشبث كل منهما برأيه وحصل شيء من التأجيل والانتظار.

بقي النزاع نائماً نحو ثلاثة أسابيع. دونما سبب وكما لو أن وحياً نزل عليه من السماء عاد رمسفلد إلى إثارة الموضوع ذات يوم وهو في مصعد البنتاغون.

"لو استطعت أن تمرر هذا، لقوبل ذلك بالتقدير من جانبي". قال رمسفلد.

أدرك ميرز أن الوزير كان يقول: "لن أتزحزح عن موقفي، وأنه هو الرئيس". نال رمسفلد مراده بالطبع. وقد فسر ميرز ما حصل قائلاً: "نحن في خدمة السادة المدنيين والقيادات الأعلى. إذا لم يكن الأمر غير شرعي، غير أخلاقي أو غير مقبول، فبادر إلى تنفيذه. إذا لم تكن قادراً على تحمل ما يجري فعندك خيارات أخرى. تستطيع أن تستقيل".

خلال السنة الأولى قدم رمسفلد إلى ميرز نسخة عن مقالة يعود تاريخها إلى زمن إدارة نكسون. كان ممثل رئيس هيئة الأركان المشتركة الأميرال توماس اتش مور في جهاز مجلس الأمن القومي قد ضُبط وهو يتجسس على البيت الأبيض ويهرب وثائق سرية إلى البنتاغون.

قال رمسفلد: "هاك، هذا شيء قد يكون ذا أهمية بالنسبة إليك".

لم يستطع ميرز أن يصدق. شعر بأنه بات أسير العملية الرمسفلدية القائمة على سلاسل لانهائية من الاجتماعات والمناقشات. في إحدى المرات عاد إلى الدبابة للاجتماع بالرؤساء بادياً مدمراً تماماً.

بنبرة قريبة من اليأس قال ميرز: "تعين علي أن أتحمل ساعتين كاملتين هناك وأنا أصغي إلى ذلك الهراء الفارغ كله مرة أخرى. ومطلوب مني أن أعود ثانية. آسف، يا شباب، غير أن علي أن أعود ثانية إلى فوق هناك خلال خمس دقائق، ولا وقت لدينا هنا".

راح ميرز يفك أزرار كميه ويحك ساعديه مضطراً، وبات ناسياً نفسه إلى درجة أن بعض الرؤساء ظنوا أنه لم يكن حتى يعي ما كان يفعله. أحياناً كان يحدق من زاوية الدبابة بادياً كما لو لم يكن موجوداً ودون أن يبالي بما كانوا يفعلونه أو يتحدثون عنه.

في ساعات السخط كان ميرز يطلق على رمسفلد لقب "ابن الكلب" أو "حثالى الحماقة". بضع مرات رآه الناس سانداً رأسه إلى طاولة الاجتماعات في غرفة الدباية غارقاً في بحر من الإحباط تماماً كما رأيته أنا.

من المفارقات الباعثة على السخرية أن رمسفلد كان قد أقام نظاماً لعدم إغراقه بسيل من التحذيرات الصادرة عن العسكريين حول سيناريوهات وردية مثل تلك التي كانت الوعود تزخر بها من فيتنام إلى كوسوفو. أي مشورة عسكرية قوية، متمسكة كانت تُشطب من النظام. بات العسكريون جهاز عاملين مجرداً، بصوت لا يعدو كونه همساً خجولاً. توهم رمسفلد أنه كان قد انتصر. بات ممسكاً بزمام الأمور.

9

خلال صيف 2001، تم إعلان سلسلة اتفاقات وقف إطلاق نار إسرائيلي - فلسطيني، ثم جرى انتهاكها. في آب/أغسطس تابع ولي العهد السعودي على شاشات التلفزيون مشاهد قيام جندي إسرائيل ببطح عجوز فلسطينية ودوسها. وفقاً للرواية السعودية، بادر ولي العهد إلى الاتصال ببندر وكلفه بنقل رسالة إلى البيت الأبيض. ذهب بندر لمقابلة بوش في 27 آب/أغسطس.

بدأ بندر يقول: "سيادة الرئيس، هذه أصعب الرسائل التي سبق أن تعين عليّ نقلها بين الحكومتين منذ بدأتُ أعمل هنا في واشنطن سنة 1982." أعاد التذكير المطوّل بسلسلة الاجتماعات الكثيرة التي كان كل من بوش أو تشيني أو باول قد عقدوها مع ولي العهد.

راح بندر يقرأ متجهماً: "سيادة الرئيس، يتعين على القيادة السعودية أن تتحسس بنبض الشعب على الدوام، وأن تبادر بعد ذلك إلى التعبير عن مشاعر شعبها في خططها السياسية".

لم يكن النظام في العربية السعودية إلا أحد الأنظمة الملكية الأخيرة في العالم. قاء بندر باستحضار الشراكة السعودية مع "أبيك" في حرب الخليج وبالوقت الذي توقف فيه "أبوك" عن تقديم الضمانات لإسرائيل عندما تنكر الإسرائيليون لوعودهم بشأن المستوطنات. في المدضي، كانت ثمة سياسة متوازنة. "حاول ولي العهد أن يجد أعذاراً لهذه الإدارة ولكنه لم يفلح". كان الرئيس قد أطلق يد رئيس الوزراء الإسرائيلي شارون ومكّنه من "تقرير كل شيء في الشرق الأوسط". إن الخطة الإسرائيلية القائمة على الاحتلال والقتل شبيهة بخطة بريطانيا في المستوطنات الأمريكية في القرن الثامن عشر، بخطة فرنسا في الجزائر، بخطة أمريكا في فيتنام، وبخطة الاتحاد السوفيتي في أفغانستان. كلها فاشلة.

"ما يزيد من ألم ولي العهد هو استمرار الجهل الأمريكي بالخطط التي تعتمدها إسرائيل كما لو كانت قطرة دم يهودية واحدة توازي أرواح آلاف الفلسطينيين".

ثم جاء خط الفعل: "لذا فإن ولي العهد لن يتواصل معك بأي شكل أو نمط أو أسلوب، وستبادر العربية السعودية إلى اتخاذ جميع قراراتها السياسية، الاقتصادية والأمنية وفقاً لمصالحها الخاصة في المنطقة دون أخذ المصالح الأمريكية في الحسبان لأنه من الواضح أن الولايات المتحدة اتخذت قراراً استراتيجياً يقضي بتبني خطة شارون".

بدا بوش مصعوقاً، حاول أن يقول: "أريد أن أؤكد لك أن الولايات المتحدة لم تتخذ أي قرار استراتيجي".

فيما بعد حاول باول أن يحرج بندر قائلاً: "ما هذه النار التي تشعلها؟ إنك تزرع الرعب في قلوب الجميع هنا. ما من أحد إلا وكاد يُفرغ ما في جوفه من تحت".

"لا يهمني ما تشعرون به شروى نقير" رد بندر "نحن أنفسنا غارقون في بحر من الخوف".

سواء أكانت هذه نوبات هستيرية مدروسة، أم مخاوف حقيقية، أم خليطاً يجمع بين التمثيل والجد، فإن التهديد السعودي فعل فعله. فبعد يومين، في 29 آب/أغسطس، بعث بوش رسالة مؤلفة من صفحتين إلى ولي العهد تقول: "اسمحوا لي أن أوضح أمراً من البداية: لا يجوز لأي شيء أن ينسف العلاقة القائمة بيننا. لم يكن ثمة تغيير في المسألة الاستراتيجية.

"إنني راسخ الإيمان بأن للشعب الفلسطيني حقاً في تقرير المصير وفي العيش بسلام وأمن في دولتهم الخاصة، في وطنهم الخاص، تماماً كما يحق للإسرائيليين أن يعيشوا بسلام وأمن في دولتهم الخاصة". كانت تلك أكبر بكثير من الخطوة التي كان الرئيس كلنتون قد أقدم عليها. حتى حين حاول كلنتون أن يغني إرثه باتفاق سلام شرق أوسطي، فإنه لم يعلن قط أي تأييد مباشر لقيام دولة فلسطينية منفصلة.

سارع بندر على الفور إلى العودة إلى العربية السعودية مصطحباً الرسالة. وفي السادس من أيلول/ سبتمبر رد ولي العهد قائلاً: "سيادة الرئيس كنت في سعادة بالغة حين لمست في خطابكم التزاماً واضحاً يؤكد المبدأ الذي قامت على أساسه عملية السلام. وقد شعرت بسرور خاص إزاء التزامكم بحق الفلسطينيين في حق تقرير

المصير كما بالحق في السلام دون إذلال داخل دولتهم المستقلة". وأضاف الجواب الرسمي: "من الجوهري، أولاً، أن تعلنوا للملأ موقفكم الذي بينتموه في رسالتكم. من شأن مثل هذا الإعلان على هذا المستوى أن يزيل الانطباع العام السائد في المنطقة عن انحياز الولايات المتحدة إلى إسرائيل".

وافق بوش على إعلان تأييده لقيام دولة فلسطينية على الملأ. جرى التخطيط للقاء كبير في الأسبوع البادئ يوم العاشر من أيلول/سبتمبر 2001.

في 11 أيلول/سبتمبر قضى نحو 3000 نسمة نحبهم في هجمات القاعدة على أمريكا. تفاصيل الهجمات وردود بوش عليها مؤرخة جيداً. كان بوش في إحدى المدارس الابتدائية الفلوريدية حين ضربت الطائرتان الأوليان. في غضون ساعات بعد الهجمات وهو في أجواء جنوب الولايات المتحدة على متن طائرة سلاح الجو رقم واحد، بعيداً عن واشنطن تحسباً لوقوع مزيد من الهجمات، اتصل بوش برمسفلد وقال له: "إنه ليوم مأساة وطنية، سنتجاوز المحنة وبعد ذلك ستكون الكرة في ملعبيكما أنت وديك ميرز".

إلا أن رمسفلد وبنتاغونه كانا خاليي الوفاض. فجهود الوزير الرامية إلى التحويل لم تكن قد انطلقت. لم تكن بحوزة الجنرال تومي وفرانكس، قائد القيادة المركزية (السنتكوم)، الشاملة للشرق الأوسط، أي خطة لمهاجمة أفغانستان، حيث اهتدى ابن لادن وشبكته إلى ملاذ. قال لرمسفلد إن من شأن الأمر أن يستغرق أشهراً قبل أن يتمكنوا من إنزال قوات على الأرض في ذلك البلد. وفي اجتماع لمجلس الأمن القومي في اليوم التالي للهجمات. سأل بوش عما يستطيع الجيش أن يفعله مباشرةً. رد عليه رمسفلد: "قليل جداً، عملياً".

لاحقاً في اليوم نفسه، وفي اجتماع آخر لمجلس الأمن القومي، طرح رمسفلد سؤالاً على بوش: لماذا لا نهاجم العراق، دون أن نكتفي بالقاعدة وحدها. كان رمسفلد من أولئك الذين يعتقدون بأن والد بوش كان قد أخفق لوقوعه في خطأ عدم الإطاحة بصدام. ذات ليلة في 1995 ، في أثناء زيارة إلى فيتنام مع صديقه كن آدلمان، كان رمسفلد قد أبقى صديقه سهران حتى الساعة الثالثة بعد منتصف الليل مغرقاً إياه بفيض من الكلام عن الإخفاقات الشنيعة لبوش الأب. كان يتعين عليه ألا يوافق بالمطلق على وقف إطلاق النار الذي أبقى صداماً في السلطة، قال رمسفلد، وكان يتعين عليه أن يدمر المزيد من الوحدات العسكرية العراقية بحجة استمرار الحرب.

قام الرئيس بإسكات رمسفلد، راغباً في التركيز على أفغانستان، القاعدة وأسامة بن لادن.

تدخلت وكالة الاستخبارات المركزية لملء الفراغ الذي تركه وزير الدفاع والجيش النظامي أو الرسمي. في غضون 48 ساعة أوجز تنت وكوفر خطتهما لبوش. كانا يستطيعان توظيف جميع إمكانيات أسرة الأجهزة الاستخباراتية، بالتضافر مع قوة الجيش الأمريكي والقوات الخاصة، تجنيد المعارضة الطائفية المعروفة بتحالف الشمال، إلحاق الهزيمة بالطالبان وإغلاق ملاذ القاعدة. بمقدار ما كان اعتراف رمسفلد بعجز البنتاغون مثيراً للقلق، كان بلاك مطمئناً إذ قال: "سيادة الرئيس، نحن نستطيع أن نفعل هذا. لا يساورني أي شك".

قام تنت بإرسال فرقة وكالة الاستخبارات المركزية السرية شبه العسكرية المعروفة باسم حاطمة الأحناك إلى داخل أفغانستان بعد الهجمات بـ 15 يوماً. بدأ القصف بعد 10 أيام، في 7 تشرين الأول/أكتوبر 2001. مثّلت الحملة بعضاً من لحظات وكالة الاستخبارات المركزية الأروع بعد 9/11، وشكلت حالة خيبة وإحباط بالنسبة إلى رمسفلد. لم يكن لدى الجنرال فرانكس سوى 31 هدفاً عائداً للطالبان والقاعدة في اليوم الأول من القصف وبقي رمسفلد عاكفاً على انتقاء المزيد من الأهداف، مصراً على تدمير ما يزيد على الأربعين من طائرات الطالبان.

بادر اللفتنانت جنرال الجوي تشارلز إف والد، قائد وحدة السنتكوم الجوية إلى إبلاغ رئيسه، الجنرال فرانكس بأنهم كانوا قد قصفوا مدارج المطارات ودمروها. لم تعد طائرات الطالبان تشكل أي تهديد بعد أن أصبحت عاجزة، على ما بدا، عن الإقلاع.

"أكاد أُطرد!" قال فرانكس. في اليوم الأول من القصف ظهر فرانكس وأركانه في اجتماع فيديو آمن في مقر قيادة السنتكوم في تامبا الفلوريدية. مرتدين قمصان الغولف. أطلق فرانكس سيلاً من شتائمه البذيئة طالباً ضرب "الطائرات اللعينة".

أمر والد بتوجيه الضربات. غير أنهم لم يكونوا قادرين، حسب القواعد العسكرية، على طمأنة فرانكس إلى أن الغارات كانت ناجحة وأن الطائرات دُمرت إلى ما بعد

الحصول على صور الأهداف الملتقطة عبر الأقمار الصناعية. عندما تأخروا طار صواب رمسفلد وصار يقذف حمماً من الشتائم. عاد فرانكس وأكد لوالد أنه سيُعفى من منصبه. أخيراً حصل والد على التأكيد من وكالة استخبارات الدفاع.

كانت الفرقة الحاطمة للأحناك وغيرها من وحدات الاستخبارات المركزية شبه العسكرية تقوم تماماً بما كان تنت قد وعد به، عاكفة على فتح الطريق أمام إسقاط سلطة الطالبان وحرمان ابن لادن من جزء كبير من ملاذه، وصولاً إلى إجبار الأخير على الهرب والتخفي. بما لا يزيد على فريق صغير مؤلف من نحو 110 من ضباط وكالة الاستخبارات المركزية و316 من عناصر قوات العمليات الخاصة، فريق شبيه من نواحٍ كثيرة بالوحدات العسكرية المتحركة التي كان رمسفلد مولعاً بها، مدعوماً بغارات جوية كثيفة كان كافياً لإنجاز المهمة.

بقي رمسفلد متفرجاً وهو في حالة انزعاج. وفي اجتماع لوكالة الاستخبارات المركزية يوم 16 تشرين الأول/أكتوبر طفح كيل غضب الوزير: "إنها استراتيجية وكالة لاستخبارات المركزية" أعلن رمسفلد "هي التي وضعت الاستراتيجية. ونحن ننفذها فقط".

نائب مدير وكالة الاستخبارات المركزية جون ماكلوخين الذي كان ينوب عن تنت، ذلك اليوم، في اجتماع مجلس الأمن القومي، أكد بإلحاح أن الوكالة لم تكن تفعل أكثر من دعم فرانكس.

رد عليه رمسفلد بعصبية: "لا، غير صحيح. أنتم تضطلعون بالمسؤولية".

آرميتاج الذي كان في الاجتماع ممثلاً لباول وجه كلامه الاستفزازي إلى رمسفلد قائلاً: "أعتقد أن ما أسمعه إن هو إلا "فضيحة مجلجلة" (فوبار)" مستخدماً عبارة شائعة بين صفوف الجنود. "وهل يستطيع العاجزون عن التوافق على تحديد الجهة المسؤولة أن يخوضوا حرباً؟"

أمر الرئيس رايس: "بادري إلى تصويب هذا الخطأ!"

بعد الاجتماع قامت رايس بسحب رمسفلد جانباً وقالت: "هذه الجارية الآن عملية عسكرية، يا دون، وعليك أنت أن تكون مسؤولاً عنها".

حتى ستيف هادلي، نائب رايس تجرأ على دس أنفه منبهاً رمسفلد إلى أن عليه أن يرسم استراتيجية "إنها فرصتك".

فيما بعد حاول باول أن يُفهم رمسفلد بأنه مسؤول شاء ذلك أم أبى.

كان رمسفلد قد تعرض للإهانة من جانب كل من ماكلوخين، آرميتاج، رئس الجمهورية، رايس، هادلي وباول.

لن يتكرر هذا. في الشهر التالي حين أمره رئيس الجمهورية بالنظر جدياً في خطة الحرب العراقية، قرر رمسفلد أن يجعل الأمر مشروعه الشخصي. هذه ستكون له هو.

لاحقاً، صار تَنَتْ يتذكر لقاءه مع رايس في 10 تموز/يوليو 2001، قبل 1 /9 بشهرين، بوصفه فرصة عظيمة مبددة لقطع الطريق على هجمات 9/11. كان اللقاء عامل تشكيل صورة علاقة وكالة الاستخبارات المركزية مع رايس ومجلس الصن القومي. كان تَنَتْ يقدم تقاريره إلى بوش على الورق، أما على الصعيد العملي فإن مدير وكالة الاستخبارات المركزية يعمل لدى مستشار الأمن القومي على نحوٍ يومي.

كان تنت قد درج على تقديم تقارير موجزة دورية وبانتظام إلى بوش في الأشهر الستة الأولى من رئاسته، وراح يطور علاقة شخصية معه. غير أن هذه العلاقة لم تكن شبيهة على الإطلاق بالعلاقة مع رايس. كانت الأخيرة تعيش وحدها، تُمضي العطل الأسبوعية بانتظام في كامب ديفد مع لرئيس والسيدة الأولى، وتكثر من السفر لى مزرعة بوش التكساسية. بدت أشبه بأحد أفراد العائلة.

كانت رايس قادرة على التوغل في عقل بوش بشأن خطر ابن لادن، إلا أنها لم تدرك مدى ضخامة هذا الخطر في الوقت المناسب، برأي تَنَتْ. شعر الأخير بأنه أدى واجبه، سلّط الضوء الكاشف والمباشر على التهديد، غير أن رايس لم تتحرك بسرعة. أحس تَنَتْ بأنها لم تكن منظمة ودافعة للناس كما كان هو يحاول أن يفعل في وكالة الاستخبارات المركزية.

ما إن استكملت التحقيقات المتشعبة الخاصة بأحداث 9/11 زَخَمَها حتى تعرضت وكالة تنت للاستخبارات المركزية للتشريح والتمزيق - إخفاق في هذا، إخفاق في ذلك، إخفاق في وصل هذه النقطة بتلك النقطة. باعتقاد تنت أن وكالة الاستخبارات المركزية كانت تعمل على نحوٍ مختلف عن مكتب التحقيقات الفيدرالي القادر على التدخل المكشوف. لو قام هذا المكتب بمعاينة بسيطة لبطاقتي اعتماد اثنين من مختطفي 11م9 جرى التعرف عليهما في الولايات المتحدة قبل 9/11، وهما نواف الحازمي وخالد المحضار، لاكتشف أن الرجلين كانا قد ابتاعا عشر تذاكر رحلات جوية صباحية مبكرة

لأشخاص شرق أوسطيين ليوم 11 أيلول/سبتمبر 2001. ربما كان من شأن معلومة كهذه ن توقف الهجمات.

بعد شهر واحد من اجتماع تموز/يوليو 2001، وفي إيجاز رئاسي سري للغاية في 6 آب/أغسطس 2001، ما لبث أن بات ذائع الصيت، حذّرت وكالة الاستخبارات المركزية مرة أخرى قائلة: "ابن لادن مصمم على توجيه ضربة في الولايات المتحدة". وفيما بعد كان تَنَتْ سيقول عن تلك الفترة: "كانت عين الجهاز محمرة". غير أن منعطف الانتقال عن الكلام المشحون بالتهديد إلى التحرك الفاعل تمثل بيوم 10 تموز/يوليو. ربما كانت رايس قد حرمته من لحظته الكبرى، أعظم لحظات حياته. كانت الاستخبارات الأمريكية قد حققت قدراً كافياً من التنسيق وباتت على شفير اختراق مهم بل عملاق. ما لبثت ريبة تنت الأولية إزاء رايس بعد لقاء تموز/يوليو 2001 أن تحولت إلى كرب حقيقي ومن ثم إلى ازدراء. ربما، فقط ربما، لو كان البيت الأبيض، بوش وكالة الاستخبارات المركزية وجميع الآخرين - بمن فيهم تنت، كما أقر الأخير - قد تحركوا، لكانت السنوات التالية ملأى بقصص النجاح.

ما من ضابط استخبارات، بلا استثناء وصولاً إلى مدير وكالة الاستخبارات المركزية إلا ويتوق لأن يكون عرّافاً قادراً على الغوص في المستقبل، على استخراج المعلومات والاستخبارات الملموسة، على خلطها بالقيل والقال، وصولاً إلى التنبؤ بما سيحصل. اعتقد تنت أنه كان قد نجح في ذلك. تمثل واجبه الأول بتجنب الكارثة، الحدث أو الهجوم النازل من السماء. باعتقاده، كان قد رأى ذلك، وشعر بأنه كان قد أطلق أوضح الإنذارات الممكنة وأعلاها صراخاً. ولكن أحداً لم يأخذ إنذاره مأخذ الجد. كان لقاء تموز/يوليو مع رايس هو الأوج. وكما أفاد كوفر بلاك لاحقاً فإن "الشيء الوحيد الذي لم نفعله هو الضغط على زناد المسدس الذي صوّبناه نحو رأسها".

كان بوش الأب قلقاً بشأن ابنه بعد 9/11، وقام باستدعاء الأمير بندر. قال له: "إنه يعيش أوقاتاً عصيبة. ساعده على الخروج من أزمته".

في 13 أيلول/سبتمبر، بعد الهجمات بيومين، اجتمع بندر مرة أخرى مع الرئيس في البيت الأبيض. عقد الرجلان مع كل من تشيني، رايس ومرافق بندر، رحاب مسعود، على شرفة ترومان في الطبقة الثانية. في صورة اللقاء يظهر بوش وبندر وبيد كل منهما سيجار.

كان السعوديون قد اعتقلوا واحتجزوا بعض مشبوهي القاعدة قبيل 9/11 وبعيده. قال الرئيس لبندر: "إذا أمسكنا ببعضهم وأخفقنا في إقناعهم بالتعاون، فسوف نسلمكم إياهم".

بتلك الكلمات عبر الرئيس، عرضاً، عما أصبح سياسة حكومة الولايات المتحدة القائمة على التسليم - تحويل الإرهابيين المشبوهين من بلد إلى آخر للتحقيق والاستجواب. إن دستور الولايات المتحدة يوفر حقوقاً وحمايات تحظر التحقيق غير المقيد مع مواطنيها. أما في بلدان مثل السعودية، ليس ثمة ما يشبه الدستور الأمريكي. فالإرهابيون المشبوهون في السجون السعودية لا يتمتعون إلا بالقليل من الحقوق. وغداة أحداث 9/11 مباشرةً كان بوش يريد أجوبة من أولئك المحتجزين.

بعد 9/11 قفزت نسبة مؤيدي بوش من 55 إلى 90 بالمئة؛ فورة غير مسبوقة. تظاهر الرئيس بعدم الاكتراث حين قام روف بعرض الأرقام عليه، إلا أنه فُهم أن وظيفة روف تمثلت بالعمل على توظيف التأييد الواسع توظيفاً فعالاً. فيما مضى، حين كان الجمهور يلتف حول الرئيس أوقات المحنة، كانت طفرة الشعبية تدوم بين 7 و10 أشهر، حسب تقديرات روف.

أوضح بوش أن رئاسته باتت الآن حول 9/11. قال لروف: تماماً كما حمل جيل أبي رسالة في الحرب العالمية الثانية، بات جيلنا يحمل رسالة. كان والد بوش قد تطوع في البحرية سنة 1942 يوم عيد ميلاده الثامن عشر وقاد طائرات مقاتلة فوق المحيط الهادي. تعرضت طائرته للإسقاط وكان قد رأى بعض أصدقائه قتلى. كانت تجربة بالغة الغنى، تجربة تأسيسية.

لم يسبق لبوش الابن وروف أن خاضا حرباً، أي حرب، غير أنهما كان يشعران الآن بأنهما مدعوان إلى ذلك وهما في بداية العقد السادس من العمر.

قال بوش لروف: "أنا هنا لخدمة قضية، ومن شأن هذا الأمر أن يكون معيار الحكم علينا". كانت تلك، إذن، هي الخطة الجديدة.

يوم 21 تشرين الثاني/نوفمبر، قبل عيد الشكر بيوم واحد، بعد هجمات 9/11 بـ 71 يوماً، طلب بوش من رمسفلد أن يبدأ بعملية تحديث خطة الحرب الخاصة بالعراق.

تذكر بوش أنه قال في ذلك اليوم: "فلنبدأ بهذا ولنطلب من تومي فرانكس أن يعاين ما ستتطلبه حماية أمريكا عن طريق إزاحة صدام حسين إذا تعين علينا أن نفعل ذلك". وقد تساءل أيضاً عن إبقاء الخطة مكتومة بعد وضعها. طمأنه رمسفلد إلى أن ذلك ممكن لأنه عاكف أساساً على "تحديث" سائر خطط الولايات المتحدة الحربية.

في هذا اليوم بالذات، أطلق بوش رسمياً سلسلة الأحداث التي كانت ستفضي إلى غزو العراق بعد 16 شهراً. في العشرات من الاجتماعات، والعديد منها مع رئيس الجمهورية والمجلس الحربي، شهدت خطة الحرب على العراق تغييرات كثيرة، سبق لي أن سَرَدْتُها في خطة الهجوم.

كانت خطة الحرب على العراق رقعة الشطرنج التي كان رمسفلد سيستخدمها لاختبار، تطوير، توسيع وتعديل جملة أفكاره بشأن تحويل القوات المسلحة وتغييرها. وقد تمثل المفهوم المحرّك بعبارة "الأقل هو الأكثر" – بتفكير جديد حول قوة أخف، أسرع، أصغر قادرة على إنجاز المهمة على نحوٍ أفضل. كان من شأن حرب رمسفلد الخاطفة أن تثبت حقه في قيادة البنتاغون.

كان رمسفلد، وهو المخطِّط والمنفِّذ الرئيس، متولياً قيادة الاجتماعات والتغييرات. أما عنصره التطبيقي الأول فكان هو الجنرال فرانكس. لم يكن الجنرال ميرز إلا متفرجاً، إذا تسنى له ذلك. وعلى الرغم من أن الأخير يعتقد أنه كان واقفاً على سائر القرارات، فإنه لم يكن مشاركاً فعلياً. ففي كتاب جندي أمريكي لفرانكس لا يرد ذكر ميرز في جلسات التخطيط للحرب على العراق إلا بوصفه حاضراً بضع مرات ومسجلاً بعض الملاحظات. كان فرانكس، ابن الأعوام الـ 58، طويل القامة، التكساسي ذو المزاج الحاد الذي اشتهر بالصراخ على مرؤوسيه معنِّفاً لدى نفاذ صبره، يسمي هيئة رؤساء الأركان "عصابة العشرة الذين يفعلونها بأمهاتهم". كان مؤمناً بأن ميرز والرؤساء الآخرين كانوا قليلي الأهمية، إن لم يكونوا عديميها، بالنسبة إلى العملية.

ثمة نقيض لافت لهذه السيرورة يمكن العثور عليه في سجل التخطيط لحرب الخليج في 1991. فكتابي القادة، ومذكرات باول، الذي كان رئيساً لهيئة الأركان المشتركة، واتش نورمان شوارتزكوف، الذي كان قائد السنتكوم في تلك الحرب، تبين الفرق.

يتحدث شوارتزكوف عن أن باول كان وسيطه، مستشاره، صلته المنتظمة، ناصحه وطبيبه النفسي. فبعد قيام صدّام بغزو الكويت في 1990، أمر الرئيس بوش الأول بإطلاق عملية درع الصحراء التي انطوت على نشر نحو 250000 جندي في الشرق الأوسط للدفاع عن العربية السعودية. ومع حلول أواخر تشرين الأول/أكتوبر 1990، أراد بوش وتشيني وزير دفاعه معرفة حجم القوات اللازمة لاعتماد خيار هجومي - توفير القدرة على طرد جيش صدام من الكويت. لم يسألا شوارتزكويف بل سألا باول الذي طار إلى السعودية حيث كان مقر قيادة شوارتزكويف. عَبَّرَ الأخير عن حاجته إلى فرقتين إضافيتين. بادر باول إلى إضافة فرقتين أخريين إلى ما طُلب. في مذكراته تحدث باول عن الحوار الذي جرى بين الرجلين: "حاملات طائرات؟ دعونا نرسل ستاً". تمثل المفهوم بـ "ادخل بقوة كبيرة. وانته بسرعة. لم نكن قادرين على إقحام الولايات المتحدة في فيتنام أخرى". وخطة استخدام القوة المتفوقة على نحوٍ ساحق لضمان النصر باتت تعرف بعقيدة باول.

بعد ذلك أبلغ باول كلاً من بوش وتشيني بأن الأمر يحتاج توفير 200.000 جندي إضافي، بما كان أساساً سيضاعف حجم القوة المدافعة عن العربية السعودية. الرئيس بوش الأول قال: "إذا كان ذلك ما أنتم بحاجة إليه، فسنوفره لكم".

أما في 2001، فإن الأمور كانت مختلفة جداً. فالرئيس الحالي بوش كان يريد خياراً قائماً على اجتياح العراق وإسقاط صدام، ولكنه كان قد خاض حملته الرئاسية واعداً بإحداث تحويل للمؤسسة العسكرية. كان هو ورمسفلد يريدان طريقة جديدة لشن الحروب. عقيدة باول باتت بالية. وخلال العام التالي ما لبثت فكرتا البنتاغون الكبريان - فكرة خطة حرب عراقية جديدة "مُنْعَشة" (refreshed) كما سماها رمسفلد وفكرة تحويل المؤسسة العسكرية - أن تزاوجتا.

في زحمة حملة قصف أفغانستان بادر نائب وزير الدفاع بول وولفوفيتز إلى الاتصال بصديق قديم هو كرستوفر ديموت، رئيس معهد المشروع الأمريكي، مركز الأبحاث الواشنطني المحافظ، منذ زمن طويل. قبل مجيئه إلى البنتاغون مباشرة، كان وولفوفيتز عميداً لمعهد بول اتش نتزه للدراسات الدولية المتقدمة بجامعة جونز هوبكنز في واشنطن الذي كان يعرف باسم سايس SAIS اختصاراً. كان المعهدان معهد المشروع

الأمريكي: ايه إي آي AEI اختصار وSAIS، القريبان أحدهما من الآخر، منبرين لفيض من أشكال التلاقح الفكري.

تحدث وولفوفيتز مع ديموت عن أن الحكومة الأمريكية، ولاسيما البنتاغون، عاجزة عن إنتاج الأفكار والاستراتيجية المناسبة للتعامل مع أزمة بضخامة 9/11. عَبَّر عن الحاجة إلى البحث في الخارج عن أجوبة لأكبر الأسئلة المتمثلة بـ: من هم الإرهابيون؟ ما منبع الإرهاب؟ ما علاقة الأمر بالتاريخ الإسلامي، بتاريخ الشرق الأوسط، وبأزمات الشرق الأوسط المعاصرة؟ ما الذي نحن في مواجهته هنا؟

أفاد وولفوفيتز بأنه كان يفكر وفقاً لطرائق بلتشلي بارك، فريق علماء الرياضيات والرموز الذي أوجده البريطانيون خلال الحرب العالمية الثانية لتفكيك شيفرة الأولترا ULTRA الألمانية للاتصالات. هل كان ديموت قادراً، بسرعة، على تشكيل فريق مَهَرة لوضع تقرير يُرفع إلى الرئيس، تشيني، باول، رمسفلد، رايس وتنت؟

سؤال مركز أبحاث عما إذا كان مستعداً لوضع استراتيجية من أجل عدد من كبار صانعي القرار السياسي في أوقات أزمة استثنائية كان شبيهاً بسؤال شركة جنرال موتورز عما إذا كانت مستعدة لبيع مليون سيارة إضافية. والمحامي الناعم، البشوش المتدرب في كلية حقوق شيكاغو والخبير في تنظيم أجهزة الحكم والإدارة ديموت وافق على الفكرة مباشرة. فمعهد AEI لم يكن عملياً إلا الفريق الفكري الميداني وموئل التقاعد بالنسبة إلى محافظي واشنطن. بين باحثيه وزملائه كان رئيس مجلس النواب السابق نيوت غنغرتيش ولين تشيني، زوج نائب الرئيس. وتشيني نفسه كان زميلاً في المعهد بين منصبيه وزيراً للدفاع ومديراً تنفيذياً لشركة التعهدات العملاقة المعروفة هاليبورتون.

قام ديموت بتجنيد عشرة أشخاص ونيف. وقد قال فيما بعد إنهم لم يوافقوا على العمل "إلا إذا وعدتهم بإبقاء الأمر سراً".

كان الفريق يضم كلاً من بيرنارد لويس، وهو باحث متخصص بالتاريخ الإسلامي سبق له أن كتب كثيراً عن أزمات الشرق الأوسط ونزاعاته مع الغرب، مفضل عند تشيني؛ مارك بالمر، وهو سفير سابق في المجر متخصص بالأنظمة الدكتاتورية؛ فريد زكريا، وهو رئيس تحرير **نيوزويك انترناشيونال** وأحد معلقي **النيوزويك**؛ فؤاد عجمي، وهو مدير برنامج الدراسات الشرق أوسطية في الـ SAIS؛ جيمس كيو ولسن، وهو

أستاذ ومتخصص بالأخلاق البشرية والجريمة؛ وريول مارك غيرخت، وهو خبير سابق بشؤون الشرق الأوسط لدى وكالة الاستخبارات المركزية. قام رمسفلد بتكليف مستشاره ويده اليمنى ستيف هيربتس بالمشاركة. وهذا المستشار، الذي كان صاحب الفكرة الأساسية وكان قد شجع وولفوفيتز على طرحها، أطلق على الفريق اسم: "بلتشلي 2".

ليلة الخميس الواقع في 29 تشرين الثاني/نوفمبر 2001، عقد ديموت اجتماعاً للفريق في مركز مؤتمرات آمن بفيرجينيا للمناقشة خلال العطلة الأسبوعية. جرى توزيع بعض كتابات المشاركين المختلفة. فوجئ ديموت بالإجماع الحاصل بين أعضاء الفريق. بقي عاكفاً، حتى ساعة متأخرة من مساء الأحد، على تكثيف أفكارهم في وثيقة من سبع صفحات ملأى، عرفت باسم "دلتا الإرهاب"، وكلمة "دلتا" هذه استعملت بمعنى مصب النهر الذي يتدفق منه كل شيء.

في إحدى المقابلات اعتذر ديموت عن تقديم نسخة من "دلتا الإرهاب" إلا أنه وافق على وصف استنتاجات الوثيقة.

"ما رأيناه في 9/11 والهجمات الأقل إثارةً الشبيهة بتلك التي استهدفت **اليو س إس كول** في التسعينيات والتي أودت بحياة 17 بحاراً أمريكياً يبين بجلاء أن هناك حرباً دائرة في قلب الإسلام - عبر المنطقة. إنها لمشكلة عويصة، و9/11 لم يكن عملاً منفرداً يمكن التعامل معه بالتدابير الأمنية وأساليب مكافحة الجريمة".

إنه نوع مختلف من الإرهاب الذي شاع في سبعينيات القرن العشرين وكان قائماً على جماعات محلية ساخطة مثل الألوية الحمراء في إيطاليا. عموماً، توصل التقرير إلى خلاصة تقول إن الولايات المتحدة قد تكون مقبلة على معركة تدوم جيلين مع الإسلام المتطرف.

"يقول التحليل العام إن مصر والسعودية، موطنَيّ معظم المختطفين، أساسيتان، غير أن المشكلات فيهما عصية على الحل. أما إيران فهي أهم بنظرهم لأنها واثقة وناجحة في إقامة حكومة متطرفة". ثم أضاف أن التعامل مع إيران يصعب تصوره بالمثل.

أما صدام حسين فبدا مختلفاً، أضعف، أكثر هشاشة. قال ديموث إنهم توصلوا إلى استنتاج يقول إن "العقيدة البعثية ليست إلا صيغة عربية للفاشية غُرست في العراق". وحزب البعث الخاضع لتحكم صدام حسين يحتكر حكم العراق منذ عام 1968.

"خلصنا إلى أن مجابهة مع صدام كانت محتومة. كان تهديداً متعاظماً - التهديد الأخطر، الأفعل وغير القابل للتجنب. اتفقنا على ضرورة إجبار صدام على مغادرة المسرح قبل الشروع في التعامل مع المشكلة". تلك كانت الطريقة الوحيدة لتحويل المنطقة.

مباشرةً من أدراج المحافظين الجدد. تم توزيع نسخ المذكرة باليد على أعضاء مجلس الحرب. أقله أحياناً وُضعت المذكرة في خانة التصنيف السري. كان تشيني سعيداً بالمذكرة التي تركت انطباعاً قوياً لدى الرئيس بوش إذ جعلته يركز على "حقد" الشرق الأوسط. أما رايس فوجدتها "مقنعة جداً، جداً".

فيما بعد قال رمسفلد إنه يتذكر الخطة العامة ولكنه لا يستحضر تفاصيل المذكرة. أقر الوزير بأن مخططه كان يقضي بـ "جمع بعض الأدمغة الممتازة على أساس من الكتمان الشديد لتوفير مضمون فكري" من أجل حقبة ما بعد 9/11.

هيريتس كان بالغ السعادة إزاء النجاح الذي حققه فريق بلتشلي 2، على الرغم من أن رمسفلد لم يوافق على جعله - الفريق - دائماً. وملخصاً استنتاجات الفريق قال هيريتس: "إننا بصدد حرب ستدوم جيلين. وستبدأ من العراق".

10

قرر بوش في 18 كانون الثاني/ يناير 2002 أن ضمانات اتفاقيات جنيف لن تطبق على المتهمين بالإرهاب المحتجزين من القاعدة والطالبان. تقرر إعلانهم "مقاتلين غير شرعيين" خارج أهلية الإفادة من ضمانات اتفاقيات جنيف بالنسبة إلى أسرى الحرب.

لم يكن الجنرال ميرز قد شارك في القرار. عارضه لأن من شأنه أن يفتح الباب أمام إساءة معاملة أفراد القوات الأمريكية الذين يقعون في الأسر. حاول مناقشة رمسفلد غير أنه لم يستطع كسبه إلى صفه. ولعل الأسوأ من ذلك هو أنه لم يعرف موقف رمسفلد.

وزير الخارجية باول التمس من الرئيس إعادة النظر. وفي اجتماع لاحق لمجلس الأمن القومي مع كل من بوش وتشيني، كان ميرز ورمسفلد مختلفين. لعلها إحدى المرات القليلة التي لم يكونا فيها قد نسقا سلفاً لجعل موقف ميرز منسجماً مع موقف رمسفلد.

قال ميرز: "سيادة الرئيس، يمكنكم أن تلاحظوا أنني "الزيون" الوحيد هنا دون ظهير. لست متوفراً على أي محام". كان لدى كل من الرؤساء الآخرين في مجلس الأمن القومي مستشاره الحقوقي. "لا أظن أن هذه قضية حقوقية. وأتفهم تقنياً سبب عدم انصباق اتفاقيات جنيف على هؤلاء المقاتلين". جميعهم لم يكونوا يقاتلون في جيوش وطنية منظمة مرتدين زياً عسكرياً، كما هو مطلوب في اتفاقيات جنيف. "أرى ذلك. إلا أنني أعتقد أن هناك أمراً آخر يتعين علينا أن نفكر به لعدم اكتسابه قدراً كافياً من الوضوح".

أفاد ميرز بأنه كان قلقاً بشأن تأثير الموضوع على أسرى الحرب الأمريكيين. "عليكم أن تتذكروا أننا قد نتعرض لمعاملة شبيهة بالطريقة التي نعاملهم بها". هذا في أفضل الأحوال. "وقد نلقى معاملة أبشع، غير أن علينا ألا نفتح الباب لهم". فالإرهابيون وأعداء المستقبل الآخرون لن يترددوا في استخدام أسلوب الولايات المتحدة مع الطالبان ذريعة للتنكر لاتفاقيات جنيف بالمقابل.

في شباط/فبراير كان الرئيس قد قرر اعتماد نوع من الحل الوسط. كان الطالبان سيخضعون لاتفاقيات جنيف، على الرغم من تصنيفهم أسرى حرب متمتعين بأعلى درجات الحماية الذين يتعذر، مثلاً، إجبارهم جسدياً في أثناء التحقيق. أما إرهابيو القاعدة فلم تكن الإدارة مستعدة بالمطلق لعدهم مشمولين بالاتفاقية، مع أن المحتجزين كانوا سيلقون معاملة إنسانية.

كان المفروض أن يتولى السكرتير الصحفي آري فلايشر قراءة القرار أمام الإعلاميين في 7 شباط/فبراير، غير أن ستيف هادلي، نائب رايس، كان قد أرسل نسخة إلى رمسفلد منبهاً إياه إلى الخطر المحتمل. وكالعادة توفرت لرمسفلد فرصة اللحظة الأخيرة للاعتراض وأوعز هادلي لفلايشر ألا يقرأ القرار.

كان بوش يتابع إيجاز فلايشر ذلك اليوم. وحين انتهى في الساعة الواحدة والدقيقة الثامنة والعشرين من بعد الظهر فوجئ الرئيس بعدم قيام فلايشر بإعلان القرار.

اتصل بوش بفلايشر قائلاً: "أنا أوضحت ذلك البيان" وطلب من السكرتير الصحفي أن يخرج ويقرأ النص. في الساعة الواحدة والدقيقة الأربعين من بعد الظهر – بعدما لا يزيد على 12 دقيقة من مغادرته للمنصة – ظهر فلايشر ثانية في غرفة الإعلام لتقديم إيجاز يومي ثانٍ غير عادي وغير مبرمج".

"اتفاقيات جنيف ستُطبق على المحتجزين من الطالبان، ولكن دون إرهابيي القاعدة الدوليين" أعلن فلايشر مشيراً إلى الفرق المهم المتمثل بـ كون محتجزي الطالبان متمتعين بصفة أسرى الحرب".

"بقي الرئيس محافظاً على التزام الولايات المتحدة بمبادئ اتفاقية جنيف، مع الزعم بأن الاتفاقية لا تنطبق، ببساطة، على جميع الحالات التي يمكن فيها إلقاء القبض على الناس أو احتجازهم من قبل القوات المسلحة، كما نرى اليوم في أفغانستان".

كان الرئيس بوش قد أمضى الجزء الأكبر من شهر آب/أغسطس 2002 بعيداً عن العمل في مزرعته بكروفورد التكساسية. التحق به بندر في زيارة يوم الثلاثاء الواقع في 27 آب/أغسطس 2002، بعد عام واحد من لقاء الـ 2001 الذي كان قد شهد قيام بندر بإبلاغ رسالة ولي العهد وممارسته الناجحة للضغط على بوش لجعله يعلن تأييد الولايات المتحدة الصريح لقيام دولة فلسطينية مستقلة، ذات سيادة. تسنى للرجين

فرصة التحدث ساعات في ذلك الصباح. كان بندر قد التقى صداماً، شخصياً، أربع مرت في السنوات الخمس الممتدة من 1985 إلى 1990، وتحدث عن انطباعاته هو، جنباً إلى جنب مع انطباعات الملك فهد الذي كان قد اجتمع مع صدام عدداً غير قليل من المرات.

قام بندر بإطلاع بوش على حديث كان الملك فهد قد أجراه مع صدام إثر حادثة 20 تشرين الثاني/نوفمبر 1979 التي أقدم فيها بضع مئات من الحركيين بالاستيلاء على المسجد الحرام في مكة احتجاجاً على مبالغة الحكومة السعودية في اللبرلة ومصادقة الغرب. كان صدام نائباً لرئيس الجمهورية وزعيماً فعلياً منذ بعض الوقت، ولكنه كان للتو قد أصبح رئيساً للجمهورية وحاضراً اجتماع القمة العربية للمرة الأولى.

"اقتل أولئك الناس" قال صدام لفهد.

قال فهد إن الحركيين قد اعتُقلوا، قادتُهم سوف يُعدمون أما الآخرون فسيتم سوقهم إلى السجن.

"أرجوك، يا سيدي، تعليقاتك تزعجني" قال صدام.

سأله فهد عما عناه.

"حسب اعتقادي لابد من قتل جميع الـ 500. ذلك بدهي. اسمع ما سأقوله لك باهتمام يا فهد. اقتل كل أخ أو أب لأي واحد من الجماعة. وإذا كان لأي منهم ابن عم قد يفكر بالانتقام فبادر إلى قتله. أما الـ 500 فأمرهم من المسلمات. غير أن عليك أن تنشر مخافة الله في كل ما يخصهم، تلك هي الطريقة الوحيدة التي تمكنك من أن تنام ليلاً".

وفقاً لما قاله بندر كان صدام يطلب من حراسه الشخصيين أن يفعلوا شيئين ليبرهنوا جدارتهم: قتل شخص آخر من عشيرته بالذات وقتل شخص من عشيرة أخرى. بما يجعله هدفاً لاثنتين من عمليات الثأر.

وشرح بندر قائلاً: "هذا شر حصيف لأنه يبقى ذا معنى إذا حررته من الشر. إذا أردت أن أكون مطمئناً إليك فيما يخص حياتي، فلابد لي من التأكد من أنك لست آمناً إلا عندي ومعي أنا".

وفي مناسبة أخرى أشار صدام إلى الناس من حوله - كباراً وصغاراً - وقال لفهد: "إنهم الأكثر ولاء لي".

علق الملك فهد قائلاً: "جميل أن يكون المرء محاطاً بأناس مخلصين".

سارع صدام إلى التصويب قائلاً: "لا، حذار، أنا لم أقل ذلك، يا صاحب الجلالة. قلت لك إنهم شديدو الولاء لي لأن يدَيّ كل منهم ملطختان بالدماء. ما من أحد منهم إلا ويعلم بأن ذرة واحدة من جسدي لن تبقى. سيتم فرمي وطحني، وإذا ما حدث لي ذلك فإنهم هالكون حتماً".

ومن اجتماعاته الشخصية مع الدكتاتور العراقي قال بندر: "لعل الأكثر إثارة للدهشة في صدام هي الثقة التي يبديها، الراحة التي يظهرها، والجاذبية التي يتصف بها – والرهبة القاتلة. وهذه الصفات جميعاً واضحة ومتزامنة".

كان صدام قادراً على جعل كبار جنرالاته يرتجفون، أفاد بندر. مرة، فيما كان بندر مجتمعاً مع صدام في ثمانينيات القرن العشرين ساعياً إلى التوسط من أجل وضع حد للحرب الإيرانية – العراقية قال له صدام: "اسمع يا بندر، جميع أولئك الناس موالون لي. أنا أستطيع معرفة حقيقة أي إنسان بالنظر في عينيه. أستطيع أن أقول لك ما إذا كان مخلصاً أم لا . وإذا بدأت عيناه تغمزان، أدرك أنه خائن فأسارع إلى إفنائه".

قال بندر إن صداماً كان ينتشي وهو يتباهى بسطوته، ويتحدث عنها بنبرة بالغة اللطف وأسلوب عام إلى درجة تقنع المرء بأنه صادق بعد خمس ثوانٍ.

مرة قال بندر لدكتاتور العراق: "إنك رجل ذو حضور. لن أُفاجأ إذا رأيت بعض ضباطك أو وزرائك المساكين يرتعدون رعباً أمامك، ذلك أمر طبيعي. هل تريد أن تقول لي إنك مستعد لقتل شخص معين لمجرد أنه ارتجف خوفاً لا لشيء إلا لأنه يرهبك؟"

أطلق صدام أكثر القهقهات إثارة للرعب: "ها، ها، ها ! ! ! !" ثم ربت على كتف بندر قائلاً: "أفضل أن أقتل شخصاً لست متأكداً من كونه خائناً، على أن أدع خائناً يفلت مني".

في خريف 2002، دار بين تَنَتْ وبوش حديث لمدة 30 ثانية بيّن فيه بوش أن حرباً في العراق كانت ضرورية وحتمية. بوغت تنت كثيراً، غير أن ملاحظات الرئيس تمت بقناعة شديدة جعلت تنت على الفور يدرك أن الأوضاع كانت مندفعة باتجاه الحرب. كان ثمة شيء عن التصميم الراسخ في لغة جسد بوش دفع تنت إلى الوقوف على حقيقة أن الحديث السري للغاية والتخطيط للحرب كانا يرميان إلى هدف محدد. قال بوش إن الأخطار الكامنة في وجود صدام كانت ستزيد مع الزمن.

أضاف الرئيس: "لن ننتظر".

في 4 تشرين الثاني/نوفمبر 2002، تولى روب رِتشر، عميل سري مخضرم ورئيس سابق لمحطة وكالة الاستخبارات المركزية في العاصمة الأردنية عمان، رئاسة قسم الشرق الأدنى وجنوب آسيا في إدارة عمليات الوكالة الذي يشرف على الشرق الأوسط كله كان القسم الطرف المسؤول عن الإدارة المباشرة للتحرك الخفي في المنطقة. في غضون شهرين، فيما كان فريق عمليات العراق عاكفاً على إدخال فرقتين شبه عسكريتين من عناصر الوكالة سراً في شمال العراق، حضر رتشر اجتماعه الأول حول العراق وسأل تنت عما إذا كان الأمر بادياً كما لو كان حرباً.

أجابه تنت بصراحة مفرطة "لك أن تراهن على مؤخرتك. ليست المسألة مسألة "إذا". إنها قضية "متى". مؤكد أن هذا الرئيس ذاهب إلى الحرب. ضع خططاً. نحن سنخوضها".

قام تنت بغربلة وتصفية بعض أفكاره خلال الأحاديث مع جون أو برينان، أحد أقرب أصدقائه الموثوقين. وبرينان العامل في الوكالة منذ 22 عاماً هذا كان عنصر الإنجاز الاستخباراتي اليومي في البيت الأبيض لمدة عامين في عهد إدارة كلنتون، ثم تولى رئاسة جهاز العاملين لدى تنت لمدة عامين آخرين. وقد كان الآن نائب المدير التنفيذي لمقر قيادة وكالة الاستخبارات المركزية.

تحدث تنت مع برينان عن اقتناعه بأن الحرب قادمة وبأن بوش كان مصمماً. وأفاد بأنه رأى أن هناك جانباً من جوانب بوش كان لا يزال، ربما، يتأمل ويجري الحسابات، في حين أن آخرين تابعين له، مثل تشيني وولفوفيتز، كانوا قد قرروا، على نحو مطلق، أن الحرب كانت قادمة.

قال تنت لبرينان إنه لا يعتقد في أعماقه بأن غزو العراق هو الشيء الصحيح. إن بوش والآخرين كانوا ساذجين حقاً لتوهمهم أنهم قادرون على احتلال العراق وإطاحة الحكومة.

ختاماً قال تنت لبرينان: "هذا خطأ".

غير أن تنت لم يبادر قط إلى نقل هذه الهواجس إلى رئيس الجمهورية. والأخير لم يكن قط قد سأله مباشرةً عن سقف مشورته. وعلى الرغم من أن بوش كان قد فتح الباب في حواراتهما إلى درجة وفرت لتنت فرصة لأن يقول: "لا، هذا جنون، هذا لن يجدي نفعاً، يجب ألا تقدم على هذا". غير أن تنت لم يفعل.

ما منعه كان معقّداً. رغم شكوكه كان تنت قد أكد لبوش في 21 كانون الأول/ديسمبر أن قصة امتلاك صدام لأسلحة دمار شامل، الذريعة الرئيسة "المفبركة" للغزو الوشيك، لم تكن إلا "خبطة عشواء". بالنسبة إلى تنت كان إغراء الغزو واقعاً لأن الولايات المتحدة قادرة، دون شك، على الإطاحة بصدام وإلحاق هزيمة شاملة بالجيش العراقي بشيء من اليسر. وكان ثمة ذلك الزخم الهائل، ذلك التخطيط الواسع من قبل وكالة الاستخبارات المركزية والجيش، بما في ذلك إشراك عدد من البلدان مثل بريطانيا العظمى في التحرك. بدا التراجع صعباً. وفيما بعد قال تنت ذات مرة: "حين تقف على أصابع قدميك فإنك لا تستطيع أن تمشي. قمنا بتوريط حلفائنا فلم نعد قادرين على ترهم وشأنهم. كانوا يوفرون لنا كل هذا الدعم الخفي".

كان تشيني أخيراً. هل كان نائب الرئيس دائباً على توظيف كل خبرته وبرودة أعصابه الظاهرية لخدمة دفعة قوية؟ هل كان قد قال لبوش: "نعم، لابد لك من أن تُقْدِم"؟ صحيح أن تنت لم يكن في الغرفة لدى حصول ذلك، إلا أنه كان مقتنعاً بأن تشيني كان، وراء الكواليس، دائباً على الضغط على بوش، مدافعاً بقوة عن فكرة الحرب بوصفها الحل الوحيد لمشكلة صدام حسين.

أواخر أيلول/سبتمبر 2002، التقى رمسفلد الجنرال فرانكس، مدير عملياته، الميجر جنرال الجوي فكتور اي "غينه" رينوار الابن ودوغلاس جي فايث، مساعد الوجر لشؤون التخطيط في البنتاغون. والأخير، فايث، البالغ الـ 49 من العمر، هذا كان أحد صنائع موظف البنتاغون السابق الذي كان أحد أبرز صقور المسألة العراقية ريتشارد بيرل.

قال رمسفلد إن وزارة الدفاع مؤهلة أكثر لإدارة عراق ما بعد الحرب من وزارة الخارجية، وعبر عن اعتقاده بأن من الضروري تكليف الدفاع بالأمر وسيتم ذلك.

وافقه فايث الرأي وأضاف أنه راغب في أن يتولى مكتبه الخاص بالتخطيط للعمليات في سيرورة ما بعد الحرب. وعلى امتداد الأشهر الأخيرة كان يتابع حضور اجتماعات غداء سرية جامعة لنواب مدراء الوكالات بإشراف ستيف هادلي. وقد كان هؤلاء قد ناقشوا القضايا بإسهاب، وكان فايث قد أنشأ دفتر ملاحظات بسماكة خمس بوصات ضمنه خلاصة للمناقشات والخطط.

قال رمسفلد: "بادر إلى إعداد نسخة لكوندي" مبدياً إعجابه بالكتاب. وقد أكد أنه لم يكن يريد للأمر، إذا كانت الحرب على العراق ستتم، "ن تنشأ بوسنة أخرى. كان يريد

أن ينم سلفاً بحث أمور إعادة البناء والقضايا السياسية. "لا نريد أن نكون في وضع يؤدي فيه إخفاق أحد الأطراف في إنجاز تلك المهمات إلى تكبيل قواتنا وتجميدها إلى أجل غير مسمى كما هي مجمدة على ما يبدو في البوسنة". كان رمسفلد دائباً على السعي لتقليص حجم قوات الناتو العاملة في البوسنة، والتي كان تعدادها قد بلغ 18000.

أعلن رمسفلد أن فايث كان سيتولى الموضوع. كان هدفه محدداً بدقة: "وحدة المسعى ووحدة القيادة بالنسبة إلى مجمل طيف فعاليات إعادة البناء التي ينبغي إنجزها وصولاً إلى استكمال أداء الرسالة وتمكين القوات من الرحيل".

فيما كانا يغادران الاجتماع وجه رينوار سؤالاً إلى فرانكس قائلاً: "هل سمعت، يا ريّس ما أظن أنني سمعته للتو؟"

"حسناً" قال رينوار، الطيار القتالي، الذي كان يسجل ملاحظات في دفتر يحمل عنوان 'كتاب الموت الأسود' "يبدو لي أن مكتب خطة العمليات" - مكتب فايث - 'سيتولى مسؤولية التخطيط لما بعد الصراع أما نحن فمسؤولون عن الأمن. ولا علاقة لنا بمسألة إعادة البناء".

"تلك هي الطريقة التي أنظر بها إلى الأمر أيضاً" قال قائد القيادة المركزية.

"أعتقد أننا راوغنا للتو قذيفة كبيرة" قال رينوار.

"قد تكون على صواب" قال فرانكس، مضيفاً "لقد تلقيت أمر الزحف. يريدنا الوزير أن نتركز على الأمن".

راح فايث ومعاونوه يعدون مشروع خطة، يشكلون فرق عمل ويوجدون خلايا محددة لمعاينة قضايا معينة مثل الطاقة، الاستقرار والسيادة. وافق رمسفلد على إيجاد مكتب جديد متخصص بإعادة البناء والمساعدة الإنسانية.

قال فايث لرمسفلد "ستكون مسؤولاً عن هذا، دعنا نوجد المكتب!"

"موافق" قال رمسفلد "فلنؤسس المكتب!" ثم قال: "لا"، بعد ذلك قال "نعم"، ومن ثم قال "لا" مرةً أخرى. كررا مناقشة الموضوع مرات. تحدث فايث مع هادلي الذي أفاد بأن تسوية دبلوماسية مع صدام كانت لا تزال أحد الخيارات، وبالتالي فإنهم لم يكونوا يريدون إيجاد مكتب لما بعد الحرب.

أواخر أيلول/سبتمبر كان الميجر جنرال في الجيش البالغ الـ 49 من العمر جيمس "سبايدر" (العنكبوت) ماركس يستعد لإحدى مسؤوليات العمر: مسؤولية كبير ضباط استخبارات قوات التحالف الخاضعة لقيادة الولايات المتحدة التي كانت تخطط لاجتياح العراق. بالنسبة إلى ماركس كانت هذه المهمة تتويجاً لخدمة 27 عاماً في الجيش. وماركس هذا الملقب بـ "العنكبوت" منذ أيام المدرسة الثانوية بوصفه لاعب كرة قدم بطول ستة أقدام ونيف ووزن 150 رطلاً إنجليزياً، كان أحد أفراد الجيل الثالث من خريجي الوست بوينت ممن تخرجوا عام 1975 بعد شهر واحد من سقوط سايغون ربما أيام تدني مستوى معنويات الجيش الأمريكي. كان ماركس واحداً من السبعة من بين صفه البالغ 875، الذين وصلوا إلى مرتبة النجمتين، وكان مصمماً على عدم إفشال هذه المهمة الحاسمة والحساسة.

كان الشاب الرشيق الوسيم المفعم حيوية وحماسة ماركس سيعمل تحت الإمرة المباشرة للقائد الميداني اللفتنانت جنرال ديفد دي ماك كيرنان. الجنرالان كلاهما كانا يدركان أن من شأن المعلومات الاستخباراتية الدقيقة، الصحيحة والآنية أن تكون حاسمة، ربما محدِّدة للنجاح أو الإخفاق.

في 26 آب/أغسطس كان نائب الرئيس تشيني قد ألقى خطاباً يجب أن يكون قد مرّ بمصفاة الاستخبارات الأمريكية. قال تشيني: "ببساطة، ليس ثمة أي شك في أن صدام حسين حائز الآن على أسلحة الدمار الشامل. ليس ثمة أي شك في أنه دئب على مراكمة تلك الأسلحة ليستخدمها ضد أصدقائنا. ضد حلفائنا وضدنا". كانت لغة الخطاب بالغة القوة، وكان ماركس واثقاً من أن الاستخبارات الكامنة وراءها بالغة القوة بالمثل. من المؤكد أن صداماً كان متوفراً على أسلحة دمار شامل.

على الفور أدرك ماركس أن القوات البرية الغازية ربما ستأتي من الكويت، من ذلك البلد الصحراوي الغني بالنفط الذي يتقاسم مع العراق حدوداً بطول 100 ميل ويشكل حاجزاً شبه كامل بينه وبين الخليج العربي. ذلك كان يعني أنه ربما كان سيوفد إلى هناك قبل الحرب بعدد من الأشهر، بطة حاضنة للبيض مع باقي جنرالات القوات البرية. وهل ثمة هدف أفضل يضربه صدام بهجوم كيميائي أو بيولوجي استباقي؟ قدر أن من شأن ذلك أن يكون مرعباً، غير أنه كان وارداً جداً. تمثلت المشكلة بعدم العودة إلى الوطن. حرص ماركس، وهو من الكاثوليك، على كتمان استنتاجاته القدرية المتشائمة عن زوجه وبناته ولكنه أدلى بالاعتراف ووضع شؤونه في سياقها.

على امتداد السنوات الإحدى عشرة منذ حرب الخليج في الـ 1991، ظلت الولايات المتحدة متورطة فيما كان يمثل حرباً متدنية المستوى غير معلنة لإبقاء صدام في علبة. كانت الطائرات الحربية الأمريكية تفرض منطقتي حظر جوي في العراق لم يكن مسموحاً لأي من طائرات صدام بأن تحلق فوقهما. أما الطيارون الأمريكيون فكانوا، بقرار من الأمم المتحدة، قد دخلوا المجال الجوي العراقي 150000 مرة خلال سنوات العقد الأخير. صحيح أن العراقيين كانوا قد تصدوا مئات المرات غير أن طياراً واحداً لم يُصب بأذى لأن الولايات المتحدة كانت متوفرة على استخبارات تكنولوجية يتعذر التفوق عليها في المقام الأول. فصور الأقمار الصناعية الملتقطة من الفضاء، صور أخرى وعمليات التقاط الاتصالات الواسعة من قبل وكالة الأمن القومي كانت توفر تفوقاً مذهلاً. إذا استخدم الطيارون وعناصر الدفاع الجوي العراقيون أجهزتهم اللاسلكية فإن الوكالة كانت تلتقط ما يجري. كانت الأجواء العراقية كتاباً مفتوحاً، "مسرح كرة زجاجية" باللغة العامية العسكرية والاستخباراتية. باتت الاستخبارات الأمريكية تقوّم أداءها بالاستناد إلى قدرتها على اختراق العراق دعماً لعمليتي المراقبة الشمالية والجنوبية، وتعطي نفسها درجة ممتاز.

غير أن ماركس ما نبث، بعد أن عكف على دراسة المعلومات الاستخباراتية عن العراق، أن اكتشف أن هذه الاستخبارات التقنية المتفوقة كانت قد أصبحت عكازة - ثقافة **انتظار المرور التالي للقمر الصناعي**. كان من شأنها أن تكون قيمة في تحديد موقع، تمركز، قوة وحركة قوات صدام في أي اجتياح. تمثل العيب في أنها جارية عن بعد. بقيت شبه محرومة من أي معلومات ميدانية، من ذلك النوع من المعلومات المباشرة المطلوبة للاهتداء إلى أسلحة الدمار الشامل التي كانت متأكدة من أن صداماً كان يخفيها.

رتب ماركس لعقد اجتماع من كبار خبراء العراق وأسلحة الدمار الشامل في جهاز استخبارات الدفاع. كان يظن أن هؤلاء الخبراء في الجهاز - هذا الجهاز المتوفر على كل الموارد الذي أبدعه وزير دفاع حقبة كندي جونسون روبرت اس مكنمارا بوصفه أهم أجهزة الجيش - هم "الشباب الأذكياء".

في 4 تشرين الأول/أكتوبر 2002 استقر في إحدى قاعات الاجتماعات في البنتاغون مع ما يزيد على العشرة من شباب الجهاز الأذكياء. كان هناك خبير صور الأقمار الصناعية الذكي ومعه الشباب الأذكياء المتخصصون في الأسلحة الكيميائية،

البيولوجية والنووية، جنباً إلى جنب مع خبراء الشرق الأوسط الأذكياء إضافةً إلى الشباب الأذكياء في منظومات جمع المعلومات الاستخباراتية الإجمالية.

"ما الذي نعرفه فعلاً عن أسلحة الدمار الشامل عند صدام؟" سألهم ماركس.

قدم "الشباب الأذكياء" قاعدة معلومات أسلحة دمار شامل سرية جداً عن العراق، بعنوان قائمة المواقع الرئيسة لأسلحة الدمار الشامل (WMDMSL). كانت قائمة مؤلفة من 946 موقعاً حددتها الاستخبارات بوصفها مصانع إنتاج أو مرافق تخزين ذات علاقة بمواد كيميائية، بيولوجية أو نووية في عراق صدام.

كتب ماركس في دفتره: إن القضية الأولى ستكون متمثلة بـ "استكشاف المواقع الحساسة SSE". ما الذي كانت القوات البرية الأمريكية الغازية ستفعله مع كل موقع من مواقع أسلحة الدمار الشامل؟ تدمره؟ تختبره؟ تحرسه؟ تجعله غير ذي جدوى؟

"من الذي سينفذ ذلك مادياً؟" سأل ماركس.

رد عليه أحد الشباب: "لسنا متوفرين على أسمائهم".

"لماذا؟" سأل ماركس "أي وحدات تقوم بذلك؟"

"لدينا وحدات تتولى الأمر"

"هل قمتم بإبلاغها؟"

"بالطبع لا".

"إذن كيف سيتناغم هذا كله؟ أكره أن أكون عبئاً ثقيلاً هنا، غير أنني أنا الشخص الذي سيكون ذلك العبء - أنا ومعي نحو 400 إلى 500 شخص - سنكون ممسكين بالكيس الخاص بهذا الأمر. هل تستطيعون أن ترموني بقطعة عظم؟"

التفاصيل الدقيقة عن كل من المواقع الـ 946 المشبوهة - المكان، نوعية سلاح التدمير الشامل، التدابير الأمنية المتخذة - كانت تهم القوات الميدانية المنتشرة على الأرض أكثر من أي طرف آخر، بما في ذلك رئيس الجمهورية. قد يكون بوش مرهناً برأسماله السياسي، إلا أن الجنود كانوا يخاطرون بحياواتهم.

كانت الحقيقة أن خبراء البنتاغون المدنيين ببدلاتهم الرسمية. قمصانهم وأربطة أعناقهم لم يكن لديهم شيء مهم يبيعونه لماركس حول هذه النقاط. قال أحدهم: "لم

تفعل شيئاً". أشار عدد من الشباب الأذكياء إلى أن تلك الأمور لم تكن إلا أموراً عملياتية يتم التعامل معها من قبل القادة العسكريين، لا الخبراء.

اعترض ماركس مؤكداً أن ليس هناك أي هوة بين الاستخبارات والعمليات في المعركة. "عنصر العمليات وعنصر الاستخبارات متلاصقان مثل توأمين سياسيين. إنهما مربوطان بحبل واحد". ويكون كل منهما معتمداً على الآخر. في أتون الحرب لابد لطرفين من أن يعملا معاً لأن كل شيء يتم لحظياً في الوقت الفعلي ذاته. ومسألتا البقاء والنجاح تبقيان متوقفتين على ذلك.

حين تصل فرق استكشاف أسلحة الدمار الشامل إلى أحد المواقع المشبوهة في العراق، مثلاً كان سيتعين عليها أن تصنف الحالات وتحدد الأولويات بالاستناد إلى مدى الإلحاح ومستوى الخطر. لن يكون ثمة أي خط فاصل بين الاستخبارات - ما هم بحاجة إلى معرفته - وبين العمليات - ما هم بحاجة إلى فعله.

ستكون الوظيفة وظيفة خبرة ومعدات، كما أوضح. هل كان سيتعين على عينة سلاح الدمار الشامل هذه أن تُرسل إلى المخبر لمعاينتها؟ هل سيكون حتى أخذ العينات أمراً ممكناً؟ هل العينة نظيفة؟ ما مدى إمكانية وضع إشارة عليها أو تخزينها لمعاينتها لاحقاً؟

بدت وجوه شباب الاستخبارات الأذكياء كما لو كانت تقول: "ليست هذه مشكلاتنا".

ألقى ماركس نظرة على نسخة ملف أسلحة الدمار الشامل وسأل: "هل هي متدرجة من حيث الأولويات؟، هل كان الموقع رقم واحد أكثر أهمية من الموقع رقم 946؟

سارع أحد الجالسين حول الطاولة إلى الاعتراض قائلاً: "بالطبع يا جنرال، وما المانع؟"

رد عليه ماركس: "لا، أنا أردت أن أسأل: أين هو موقع 946 مادياً؟ هل التدريج مستند إلى احتمال وجود أسلحة الدمار الشامل هناك؟" هل كانت هذه جميعاً مواقع مؤكدة؟ هل بعضها أكثر يقيناً من بعضها الآخر؟

لم يقدّم أي منهم جواباً.

حاول أن يغوص أعمق. إذا كان الموقع 946 أقلّ أهمية من الموقع رقم واحد، فإنه كان يريد أن يعرف السبب.

مرة أخرى لم يكن لدى أي منهم جواب فعلي.

هل تم إدراج الموقع رقم واحد أولاً من منطلق أنه يحتوي على الكمية الأكبر من أسلحة الدمار الشامل؟ أم بسبب نوع هذا السلاح - كيميائي، بيولوجي، نووي أو نشاط صاروخي أو أي صنف آخر؟ هل للأمر علاقة بالخطر الإجمالي المتمثل بالموقع؟ أم أنه متعلق بمدى سرعة وسهولة قيام صدام باستخدام أسلحة الدمار الشامل؟ سأل ماركس: "كيف جرى تجميع هذه الأشياء ورصفها؟"

أشار الخبراء إلى أن الرقم واحد كان ببعض المقاييس أعلى قيمة.

حسناً، قال ماركس، تعالوا نحدد معنى أعلى قيمة.

أخيراً قال الخبراء إن 120 من الـ 946 كانت ذات "أولوية عليا" وقام ماركس بتسجيل الملاحظة في دفتره.

بدأ ماركس كلامه قائلاً: "عمليـتياً". توقف لثانية وهو ينظر إلى من هم حول الطاولة. بدا فقدان الاهتمام في الغرفة متنامياً. جل هؤلاء الشباب لم يسبق لهم أن خدموا في القوات المسلحة، كما قدَّر. رسم خارطة بسيطة على قطعة ورق. قال:

"يبدو العراق شبيهاً بهذا الشكل. من المحتمل أن ننزل في الكويت. ستكون ثمة ثلة من الشباب الصغار في عربات برادلي قتالية ودبابات هي مجموعة الشباب الأولى التي ستصادف هذه المواقع المبعثرة في طول البلاد وعرضها". ثم أكد ماركس أن أي جندي سيكون مكلفاً بتنفيذ عدد من المهمات لحظة عبور الحدود: "سيكون ملزماً بقتل الأشرار. سيكون ملزماً بحماية نفسه. سيكون ملزماً بحماية أحبائه رفاق السلاح. سيكون ملزماً بتسيير آليته". والآن كانوا موشكين على تكليفه بمهمة جديدة: سيطالب بتوفير أمن نحو ألف موقع مشبوه باحتواء أسلحة الدمار الشامل.

رأى ماركس أن كثيرين من الشباب الأذكياء كانوا يحدقون فيه. ما هذه المبالغة في التفصيل، في إيراد القضايا والمسائل الميدانية العملية؟

تابع ماركس كلامه قائلاً: "قد يكون الموقع الأول هنا، عبر الحدود مباشرة. غير أن من شأن هذا الموقع أن يكون الموقع رقم 833. هل يتجاوزه؟ هل تريدونه أن يتوقف عند الموقع مهم؟ أعني أن في الأمر مطلباً عملياتياً، وأريد منكم إضفاء نوع من المعنى عليه". ثم أضاف أنه لم يكن يطلب منهم أن يحددوا له ما يتعين على الوحدات الميدانية أن تفعله. لم يكن ذلك شغلهم. "غير أن من واجبي أن أوفر للعناصر قدراً كافياً من المعنى لمدى أهمية وأولوية ذلك الموقع. ومجرد إعطائه الرقم 833 في القائمة لا ينبئني بشيء.

غادر ماركس الاجتماع منزعجاً جداً. أقر لاحقاً: "صُعقت إزاء غياب التفاصيل". كان المفروض أن يكون هؤلاء بعضاً من أكثر الرجال والنساء العاملين في ميدان استخبارات أسلحة الدمار الشامل في العراق ذكاءً وإخلاصاً. أدرك أن البنتاغون لن يفيد كثيراً في هذه المسألة الحساسة.

غاص ماركس في الأدلة الداعمة الموحية بأن كلاً من المواقع الـ 946 لأسلحة الدمار الشامل الواردة في القائمة الرئيسة كان فيه نوع من أنواع أسلحة التدمير الشامل. وجد الأدلة ضعيفة. ثمة كانت صور أقمار صناعية قديمة جداً - منذ خمس سنو ت أو أكثر أحياناً - وبعض المؤشرات الاستخباراتية. كانت تلك نتفاً من مكالمات هاتفية ملتقطة، ولكن دون أي شيء حاسم فيما يخص موقعاً محدداً أو سلاح تدمير شامل معيناً. لم يكن هناك أي شيء قريب، ولو من بعيد، من مكالمة ملتقطة يقول فيها أحد الضباط العراقيين: "إن غاز في اكس (VX) للأعصاب مخزن في الطبقة الأولى من البناية رقم 1600 في شارع صدام". قائمة أسلحة الدمار الشاملة كانت على شبكة كمبيوترية، ولو طبع منها نسخة ورقية لما تجاوزت المعلومات الإجمالية عن أي ملف خاص بأحد المواقع الصفحات الـ 15 أو الـ 20، مع بقاء الجزء الأكبر منها بلا قيمة مؤكدة.

العزل الذي فرضته الولايات المتحدة على العراق منذ حرب الخليج كان شبه كامل، لم يكن ثمة أي تجارة روتينية، أي تبادل، أي حوار سياسي - وبالتالي أي أساس فعلي لاستخبارات. صحيح أن الاستخبارات التقنية كانت عظيمة على صعيد منطقتي الحظر الجوي، غير أنها كانت عديمة الجدوى تقريباً بالنسبة إلى العثور على أسلحة دمار شامل، تحييدها أو تدميرها، قبل توفر إمكانية استخدامها، في ما يقرب من ألف موقع في طول البلاد وعرضها.

ما كان ماركس بصدده تمثل بعمى استخباراتي دام عقداً كاملاً من الزمن. أدرك في لحقيقة أنه لم يكن قادراً على القول بثقة إن هناك أي سلاح تدمير شامل أو أي مخزون من هذه الأسلحة في موقع واحد من قائمة المواقع المشتملة على 946 موقعاً. نعم، ولو موقع واحد.

"إننا عراة،" باتت شعار ماركس الذي ردده باستمرار أمام أركان جهاز استخبارات وزارة الدفاع وأمام مرؤوسيه في اجتماع بعد آخر. كان سيتعين عليه أن يستفز الجميع ويثير أعصابهم. غير أنه بقي مع ذلك يتساءل قائلاً: "لماذا نحن الوحيدون الذين يقومون بهذا العمل؟ لا أملك جواباً".